دكتور جورج حبيب بباوي

موقع الدراسات القبطية والأرثوذكسية
www.coptology.org

الصلب و الصليب

خرافة أم حقيقة تاريخية؟

الصَّلب والصَّليب...

خرافة أم حقيقة تاريخية؟

دكتور

جورج حبيب بباوي

٢٠٢٢

مقدمة

يتناول هذا الكتاب موضوع صلب المسيح والخلفية التاريخية لهذا الحدث التاريخي الهام الذي ترك بصماته الواضحة على التاريخ البشري والتاريخ المسيحي بشكلٍ خاص. ويقدم الكتاب نماذج من وثائق تاريخية سبقت ظهور المسيحية، حيث يظهر فيها بشكلٍ واضح أن "الصَّلب" هو أسلوب شائع معروف في العالم القديم، وأن الصلبان غُرِسَت في كل مكان تقريبًا من أقاليم وولايات وبلاد البحر المتوسط، وبالتالي الذي عُلِّق على خشبة الصليب خارج أورشليم كان واحدًا من آلاف البشر الذين ماتوا بهذا الشكل القاسي. ولكن هذا المصلوب الواحد، أي يسوع المسيح كان هو الذي فجَّر في حياة الذين آمنوا به رسالة المحبة والغفران والاحتمال والاستشهاد في سبيل المحبة والتسامح ....

يبدأ الكتاب بقضية "الشَّك"، ويميّز بين قضية الشك التاريخي، والشك المذهبي، أي الشك الذي له ما يؤيده من التاريخ، والشك الذي يُولد ويُغذى من وبسبب مذهب، أو عقيدة دون أن يكون له سندٌ ولو ضئيل من المصادر التاريخية.

أخيرًا يعرض الكتاب للمصادر اليهودية، ثم يقدم موجزًا عن المؤلفين والمراجع التاريخية القديمة.

****

يسوع المسيح يا مَن عُلِّقت على خشبة العار من أجل حق المحبة، ومحبة الحق، أتوسل إليك يا مَن لم تصدر منك كلمةُ سوءٍ، أو حتى ردٌّ على صالبيك،

أن تكون هذه السطور جزءًا من شهادةٍ للحق ومحبة البحث، ولعلك تقبل هذا الجهد الضئيل الذي أحسبه قطرةَ عرقٍ أسكبها مع قطرات عرقك في البستان، وذبيحة محبة أقدمها مع ذبيحة محبتك الأعظم التي منها نشأت كل الذبائح.

جورج حبيب بباوي

عيد السيدة العذراء

نوتنجهام

أغسطس ١٩٩٣

الفصل الأول

الشك التاريخي .. والشك المذهبي

الشك في صورته الحديثة العامة:

يعود تاريخ الشك بشكلٍ عام إلى عصر الشك الذي ساد أوربا مع بداية القرن الثامن عشر، شكٌّ شمل كل شيء، شكٌّ في وجود الله، شكٌّ في الوحي، شكٌّ في خلود الروح الإنسانية وفي الحياة بعد الموت، شكٌّ في جدوى السلوك الأخلاقي الجيد والفاضل.....

وتناول الشك كل القضايا الفكرية والدينية بشكل خاص.

أرادت أوربا أن تضع العقل قبل الايمان، وأن تجد في قدرة العقل وحده مقياس الحق، وأن تجد في الفلسفة والعلوم (بمعناها الحديث) المقاييس الموضوعية التي لا يمكن للعقل البشري الشك فيها، أي قدرة الإنسان على أن يبرهن بعقله وحده على صواب فكرة معينة وخطأها.

وسارت أوربا وراء هذا المنهج طوال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.

الشك في وجود الإنسان:

يذكر طلاب الفلسفة بشكل خاص كيف تناول الشك وجود الإنسان، وكيف ظل الشك في وجود الإنسان، وفي قدرته على إثبات وجوده قائمًا، حتى جاء

مؤسِّس الفلسفة الأوربية الحديثة (ديكارت) (١٥٩٦-١٦٥٠) وطرح قضية الشك في وجود الإنسان من خلال الشك نفسه، وهكذا سلك هذا السبيل، فهو أي ديكارت يتوهم أنه يحلم بل يتوهم أن شيطانًا يوحي له بكل أفكاره... وهذا هو حوار ديكارت مع الشك:

١- قد يكون في حالة يقظة أو في حالة حلم.

٢- الشيطان هو الذي يضع في عقله كل الشكوك.

٣- جسده وهمٌ وليس حقيقة .. فقد يكون بلا جسد.

وتأمل ديكارت هذه الخطوات المبنية على الشك .. وتأكد أنها مستحيلة تمامًا، لسبب واحد معقول، وهو أن عدم الوجود يعني عدم القدرة على الشك وقال عبارته المشهورة: Cogito Ergo sum "أنا أفكر، لذلك فأنا موجود".

وأصبح الفكر من علامات الوجود وأحد البراهين على وجود الإنسان. فالفكر يؤكد أن الإنسان الذي يشك قادرٌ على التفكير، وهذه القدرة من علامات الوجود، وطبعًا سبق ديكارت، القديس أوغسطينوس، والفيلسوف العربي ابن ماجة الذي اعتبر الإرادة من علامات وأدلة الوجود، وأن الإرادة تسبق الفكر، ولذلك فالإرادة دليل على وجود الإنسان.

الشك التاريخي:

كان المفكر الأوروبي يبحث عن أدلة وبراهين على صحة كل ما عرفه الإنسان. وإذا جاء العقل قبل الإيمان، أصبح العقل وحده هو صاحب الكلمة الأولى والأخيرة .. ودام البحث عن أدلة على صحة كافة المعتقدات .. ولا زال البحثُ عن هذه الأدلة قائمًا .. إثبات وجود الله - خلود الروح - الحياة بعد

الموت، بل وجود شيء اسمه النفس أو الروح.

والشك هنا يبدأ بتاريخ الديانات، كل الديانات مهما كانت، هو شك مبني على هذه الدعامات:

١- الديانات ليست سوى احتياجات إنسانية خلقها الإنسان، فهي من خيال وإبداع العقل الإنساني.

٢- الديانات نابعة من الأساطير، فهي ثمرة الخيال البشري المحض، وما وصلنا عنها ليس إلا مجرد أساطير بلا تاريخ .. أي أنها قصصٌ لا يوجد لها سند تاريخي...

تعود بداية الشك التاريخي إلى القرن السادس عشر، عندما بدأ الاهتمام بتراث الإنسانية الديني بترجمة الكتب الدينية إلى كافة اللغات الأوروبية الحديثة .. وبدأ العقل الأوروبي يقارن ويحاول أن يجد الفرق أو الفروق بين الأسطورة والتاريخ .. ووُلدت في هذه الفترة أبحاث "الدين المقارن"، و"فلسفة التاريخ". وشملت المقارنة كل الديانات وحظيت المسيحية بشكلٍ خاص بنصيبٍ كبير لأنها ديانة أغلب السكان، ولأن الكنيسة تتمتع بوجودٍ ونفوذٍ ظاهر.

واستغرقت المقارنات طوال القرنين السابع عشر والثامن عشر، وبشكلٍ خاص في فرنسا وإيطاليا .. وبدأت موجات فكرية متعاقبة تسود جامعات أوروبا:

أولًا: موجة الانبهار بما جاء في تراث الشعوب غير الأوروبية من حضارة وفن وفكر ودين...

ثانيًا: موجة المقارنة بما جاء في حضارات وديانات هذه الشعوب بالمسيحية، وهل المسيحية أفضل أم أقل.

ثالثًا: موجة البحث عن مقاييس موضوعية لمقارنة الديانات كلها ..

وفي الموجة الأولى وجد علماء أوروبا أن بعض عقائد المسيحية موجودة عند قدماء المصريين والبابليين .. الخ.

وخلَّفت الموجة الأولى الكثير من الكتب والمقالات التي وصلنا بعضها باللغة العربية المترجمة عن اللغات الأوروبية الحديثة. ثم انحسرت الموجة الأولى لأن الجيل الثاني كان يشك في نتائج أبحاث السابقين. فهل أخذت المسيحية عقيدة الثالوث من مصر الفرعونية أم أنها عقيدة خاصة بالمسيحية؟ وجاءت أبحاث تنكر حتى مجرد التشابه لا النقل والاقتباس. وانحسرت هذه الموجه لكي يأتي الجيل الثالث من الباحثين لكي يحلل ويشكك في أصالة المنهج العلمي والتاريخي نفسه الذي ساد أوروبا طوال القرنين السابع عشر والثامن عشر. وتمت التصفية في نهاية القرن التاسع عشر وأول العشرين، وجاءت هذه المحاولات الجادة بما يلي:

أولًا: وضع القواميس والمعاجم الخاصة بالكلمات والمصطلحات، وتحديد معانيها من خلال ما استقر في تراث الشعوب، لا بما جاءت به القواميس ودوائر المعارف الأوروبية.

ثانيًا: رفض كل المقارنات المبنية على تشابه نصوص Texts ما لم يكن لدى الباحث وثيقة Document تؤكد وجود صلة بين ديانتين، لأن انعدام وجود الوثائق يعني أن الصلة هي قراءة ذاتية للباحث وأنها مجرد استدلال وليست دليلًا، والفرق بين القراءة الذاتية أو الاستدلال والدليل هو فرقٌ كبير لا يلاحظه إلا الذين درسوا التاريخ.

ثالثًا: ضرورة التمييز بين الأسطورة والخرافة قبل التمييز بين الأسطورة

والتاريخ، لأن الأسطورة هي حقائق علمية وُضِعَت في شكل شعر، أو قصة، أو ملحمة Epic، بينما الخرافة هي خيالٌ جامحٌ يعبِّر عن خوف الإنسان، أو أمانيه فقط دون وجود حقائق علمية بالمرة.

وهكذا وُلدت فلسفة التاريخ لكي تدرس تراث الإنسانية القديم وتفصل بين الخيال وأساطير الماضي.

رابعًا: دراسة كل دين على حدة من خلال مصادره، وكتبه، وفكره، وتطوره التاريخي، كما سجَّله الشعب أو الجماعة التي تؤمن بهذا الدين، وعرض إيمان أتباع هذا الدين يجب أن يسبق كل محاولة للمقارنة. وهكذا بدأت معالم علم الأديان المقارنة تظهر في شكل جديد يدور حول هذه المحاور الأساسية:

١- الاختلاف.

٢- التشابه.

٣- التمايُز والخصوصية.

٤- الاتحاد في الأهداف والوسائل.

٥- الاتحاد في الأهداف فقط.

٦- الاختلاف في الوسائل والاتحاد في الأهداف .. الخ.

مثالٌ صارخ من واقع القرن العشرين

وفي ضوء ما ذكرناه سابقًا، سوف يبتسم علماء الديانات المقارنة والتاريخ في سخرية، إذا جاء من يقول أو يكتب إن الثالوث يعود إلى ديانة مصر القديمة أو عقائد الفرس أو ... الخ وسبب سخرية علماء التاريخ في هذا القرن أي القرن العشرين مصدرها ما يلي:

١- هل استخدم قدماء المصريين كلمة ثالوث، لأن هذه الكلمة كما تؤكد القواميس والمعاجم لا وجودَ لغويٌّ لها قبل المسيحية، وبالتالي إذا تعذَّر على الباحث أن يقدم الدليل "اللغوي"، اعتُبِرَ بحثه بلا قاعدة لغوية، أي بلا وجود.

٢- هل عبد قدماء المصريين ثلاثة آلهة معًا أطلقوا عليها اسم الثالوث؟ وإذا جاء الجواب بالنفي لأن وجود آلهة ثلاثة معًا في أسطورةٍ أو خرافةٍ أو نشيدٍ ديني مهما كان لا يعني وجود صلة تاريخية بين هذه الآلهة والثالوث المسيحي، لأن أسماء الآب والابن والروح القدس لا تعرفها مصر الفرعونية، وبالتالي إذا تعذَّر وجود صلة تاريخية، صار الادعاءُ بأن الثالوث هو عقيدة فرعونية مجرد فكاهة.

٣- وماذا عن العهد القديم والديانة اليهودية؟ فهي المصدر الأول للمسيحية، لأن الصلة التاريخية بين اليهودية والمسيحية صلةٌ معروفةٌ بحكم المولد والنشأة على أرض فلسطين. وطبعًا قد يستطيع الذين يدَّعون وجود صلة بين مصر الفرعونية واليهودية، الادعاء بالاقتباس من صلوات أخناتون وغيره ... وهنا يسأل علماء التاريخ: يوجد تشابهٌ ظاهر .. فهل يوجد اختلاف؟ وما هو سبب الاختلاف، وإذا كانت الصلاة والعبادة بشكلٍ عام ظاهرة عامة معروفة في تراث كل البشر .. فهل نكتفي بالتشابه فقط؟

الشك المذهبي:

يختلف الشك التاريخي عن الشك المذهبي (أي الشك الذي ينشأ بسبب الانتماء لمذهب أو عقيدة أو مدرسة فكرية خاصة) في عدة أمور يمكن أن نضعها في هذا الملخص الوافي:

أولًا: الشك المذهبي نابع من رفض المذهب لفكرة معينة مثل رفض فلاسفة

الاشتراكية قبول صحة ما جاء في الرأسمالية مهما كان. هذا شكٌ مذهبيٌ لا علاقة له بالتاريخ أو الحقائق.

ثانيًا: يرفض الشك المذهبي أدلة الطرف الآخر، لأن الشك المذهبي يقوم على رفض شيء معين، فكرة، أو مبدأ أيًّا كان، وبالتالي هو شكٌ لا ينفع معه الحوار، وهو شكٌ يعود أصلًا إلى أسلوب انتقاء الأفكار لا أسلوب البحث التاريخي، والانتقاء يقوم على اختيار ما هو مناسب وليس ما هو صحيحٌ تاريخيًّا. أما أسلوب البحث التاريخي، فهو وضع كل المعلومات معًا في مجال الدراسة والتحليل. ولعل أفضل مثل على الشك المذهبي هو الشك في بشرية المسيح، لأن مذاهب دينية مثل الغنوسية ترفض الجسد والمادة، وتعتبر أن الجسد هو مصدر الشر، وأن المادة من خلق إله الشر، هذا شكٌ مذهبيٌ، مصدره العقيدة الفلسفية التي صاغت المذهب الديني الغنوسي Gnostic الذي يقوم على ثنائية الخير والشر وثنائية إله الخير وإله الشر ...

ويستطيع مَن يدرس مدارس ومذاهب البشر أن يرى كيف يصوغ الشك المذهبي الكتب والمقالات التي تأخذ بعض ما جاء في التاريخ. والشك المذهبي له علاقة بالأساطير بشكلٍ خاص، فهو لا يأخذ بالحقائق التاريخية .. لأن الشك المذهبي هو انتقاءٌ بلا تحليل، بلا مقارنة، وخيالٌ تقوم فيه المشاعر والظروف الاجتماعية والعوامل النفسية بالدور الأكبر.

الشك في وجود السيد المسيح:

كان الشك التاريخي يسأل في دقةٍ تاريخية .. هل يمكن اثبات وجود شخص اسمه يسوع المسيح عاش على هذه الأرض؟ وجاءت الأبحاث التاريخية بهذه

الإجابة:

أولًا: تؤكد المصادر الوثنية، وهي ما دوَّنته أقلام المؤرخين، والذين كتبوا التاريخ القديم أن شخصًا اسمه يسوع المسيح عاش في فلسطين وصُلِبَ على عهد بيلاطس البنطي. وشهادة هذه المصادر (سوف نضع النصوص أمام القارئ) تؤكد أن ما جاء في الأناجيل الأربعة، وفي العهد الجديد هو صحيح، لأن الشخص الذي يحتل قلب العهد الجديد هو يسوع الذي تذكره المصادر الوثنية.

ثانيًا: العثور على برديات تحتوي على أجزاء من العهد الجديد يعود بعضُها إلى عام ١٠٠ ميلادية، تحتوي على ذات النصوص التي تظهر في كتاب العهد الجديد، مما يؤكد أن هذه النصوص عُرِفَت في عصر مبكر جدًا[١].

ثالثًا: شهادة المصادر اليهودية القديمة، وهي مصادر "الخِصم" لما جاء في تاريخ المسيحية.

رابعًا: شهادة الآثار القديمة، لا سيما شواهد القبور، والأحجار من نقوشٍ تحتوي على صلوات وعبارات تعبِّر عن ايمان الجماعات المسيحية، وشهادة الأحجار أهم من شهادة الأوراق مهما كان نوعها.

خامسًا: وجود ما يُعرف لدينا باسم "العبادة" أو الليتورجية المسيحية، وهي الطقوس والصلوات المسيحية التي تظهر باللغة الآرامية مثل: "ماران آثا .. تعال أيها الرب"، أو غيرها. وهو ما يؤكد أن محور هذه العبادة هو شخصٌ اسمه يسوع، وأن أهم معالم حياته هي الصَّلب والقيامة، وبالتالي ما سر هذه الطقوس والصلوات؟

---

(١) أثناء كتابة هذا الكتاب نشرت المجلات العلمية نص بردية من إنجيل القديس مرقس عُثر عليها في مخطوطات "قمران" قرب البحر الميت بفلسطين تعود إلى سنة ٦٥ ميلادية.

وهكذا وُلِد في القرن الثامن عشر وما بعده "علم الآثار المسيحي"، وبحث علماء التاريخ عن المعابد، والهياكل، والمدافن، والتوابيت، والأكفان، والبرديات، والأخشاب، والمعادن، وكل ما له صلة بالمسيحية منذ ميلادها حتى انتشارها. وجادت الحفريات والمكتبات بالكثير. ونشرت جامعات أوروبا النصوص وتاريخ الحفريات .. الخ في المجلات العلمية، بل عُثِر على نقشٍ في فلسطين قرب القدس عليه الاسم الآرامي – العبراني القديم "يشوع" أو يسوع وقيمة النقش هو في طريقة كتابة الاسم نفسه.

وهكذا هدأ الشك التاريخي، لكن الشك المذهبي لا يهدأ.

والسؤال الهام هنا: ما الذي جاء به البحث التاريخي؟

والجواب: هو صلب المسيح على عهد بيلاطس البنطي حسب شهادة المصادر غير المسيحية لأن صلب المسيح هو أسطع الحقائق التاريخية.

الفصل الثاني

التاريخ والأساطير

ما هو الفرق بين الأسطورة والحدث التاريخي؟ لم يُطرح هذا السؤال قبل القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. كانت بداية تحديد شكل وجوهر الأسطورة أو الأساطير بشكلٍ خاص على يد فلاسفة اليونان قبل ظهور المسيحية. فقد وجَّه بعضهم نقدًا شديدًا لاذعًا للعادات والعبادة الوثنية التي اعتمدت على الأساطير القديمة وتحصَّنت فيها، وبشكلٍ خاص ما يُنسب للآلهة من خطفٍ وقتلٍ وزنى .. الخ.

فالإنسان هو ما يَعبُد، وعندما يتشبَّه الإنسان بالآلهة التي يعبدها، وعندما تكون الآلهةُ انعكاسًا لأشرِّ وأحط ما في الإنسان، من عاداتٍ ونزوات، انحدرت الإنسانية إلى أسفل. كان الجانب المظلم للأساطير هو الذي جعل العقلاء والفلاسفة يدركون أن التمييز بين الأسطورة والحدث التاريخي هو أمر ضروري، لأن أشرَّ ما في الأساطير هو الخرافة أي الأوهام، والمخاوف التي تتجسد في شكل حيوانات وكائنات خرافية لا وجود لها إلَّا في خيال الإنسان وفكره. وخلاصة النقد القديم للأسطورة أو الخرافة يمكن حصره في نقطتين:

أولًا: تأكيد فساد الخرافات لأنه لا يوجد دليلٌ على وجود الكائنات التي تتحدث عنها الخرافات.

ثانيًا: شرح الكُتَّابُ القُدامى أصل الخرافات، وقالوا إن بعضها وُلِد في زمانهم، كما أن بعض الآلهة التي يعبدها عامةُ الناس لها أصلٌ معروف، وأن هؤلاء كانوا من الأبطال أو الشخصيات التاريخية التي تحولت إلى شخصيات أسطورية بسبب ما شاع عنها من قصص غير حقيقية.

وهكذا يلاحظ القارئ أن بداية الفكر التاريخي العلمي، تعود إلى نقد الفكر والعادات الدينية على يد المثقفين من القدماء الذين تركوا هذه البذرة، حتى جاء العصر الحديث وغرسها في حقل دراسات التاريخ ووضَعَ دعائم التفرقة بين الواقعة التاريخية والأسطورة على النحو التالي:

أولًا: تتجاهل الأساطير التاريخ نفسه إذ لا تذكر السنة أو الشهر أو اليوم لأنها تبدأ على النحو المعروف عندنا "كان ياما كان"، أو حدث في ذات يوم، أو أية عبارات أخرى مشابهة.

ثانيًا: تفصل الأسطورة مكوناتها عن التاريخ العام للشعب أو الجماعة، لأن الأسطورة تحاول جاهدة أن تقول في صراحة إن ما حدث هو قديم جدًا وأن القوة الكائنة في الأسطورة هي في كونها قديمة. ولا تذكر الأسطورة أو الخرافة أي وقائع تاريخية معروفة مثل الأحداث القومية أو حكم أحد الملوك أو وقائع حربية معينة. ولعل القارئ يذكُر أن القديس لوقا يدون الوقائع التاريخية بأسلوب علمي واضح يقول: "كان في أيام هيرودس ملك اليهود .." (لوقا ١: ٥)، أو "وفي تلك الأيام صدر أمرٌ من أغسطس قيصر بأن يُكتتب كل المسكونة وهذا الاكتتاب الأول جرى إذ كان كيرينيوس والي سورية" (لوقا ٢: ١-٢). ولاحظ أيضًا "وفي السنة الخامسة عشر من سلطنة طيباريوس قيصر إذ كان بيلاطس البنطي واليًا على اليهودية

وهيرودس رئيس ربع .." (لوقا ٣: ١). هذا هو أسلوب المؤرخ الذي لا نراه في كتب الأساطير والخرافات.

ثالثًا: لا تذكر الأسطورة أو الخرافة الشهودَ، إنما تقدم الأبطال أو الضحايا فقط دون أن تذكر أسماء الذين عاينوا هذه الوقائع المروية، فهي بلا شهود عيان بالمرة.

رابعًا: وغالبًا مع اختفاء ذِكر التاريخ لا تذكر الأسطورة المكان الجغرافي إلَّا إذا كان المكان نفسه مثل جزيرة فيلة في جنوب مصر، وهو أقدم معبد للإلهة إيزيس، وهو بدوره بقعة مقدسة تحميها الأسطورة، ولكن يلاحظ علماء التاريخ أن المكان الجغرافي هو جزءٌ من الأسطورة يُقدَّم دون تاريخ ودون شهود. وقد أدَّى هذا إلى تطور الدراسة النصية (أو النصوصية)، Textual وهي دراسة أسسها القدماء من فلاسفة وكُتَّاب العصور السابقة على ظهور المسيحية تقوم على دراسة النص Text نفسه وتحقيق ما جاء فيه وعزل ما هو تاريخي عن الأسطورة وتحديد عمر النص، وشخصية أو شخصيات الذين كتبوه، ومستوى لغة الكاتب، والاقتباسات التي أخذها من مصادر أقدم وغيرها. وهكذا لاحظ علماء نقد النصوص أن الأماكن الجغرافية المقدسة للديانات هي أحيانًا جزءٌ هام من الأسطورة، وبالتالي يظهر أن الأسطورة وُلِدَت لكي تؤكد أهمية المكان، وبمعنى آخر نشأت العبادة أولًا وتطورت ثم ولدت قصة أو أسطورة عن إلهٍ وُلِد وعاش وتناسل أو حارب في بقعة معينة، فصارت الأسطورة هي سبب أو علة تقديس هذه البقعة الجغرافية.

خامسًا: تنقسم الأساطير والخرافات إلى عدة أنواع ولكن يمكن حصر أنواع الأساطير والخرافات في نوعين رئيسيين:

النوع الأول: الذي يدور حول كائنات لها وجود بيولوجي مثل الآلهة.

النوع الثاني: كائنات حيوانية تناسلت من البشر، أو الآلهة، وليس لها وجود بيولوجي حقيقي، رغم ادعاء الأسطورة وجود كائنات لها ذيول أو قرون، أو أسنان أو ما يشبه "أُمنا الغولة" في الأساطير العربية. وهذا يجعل الأسطورة والخرافة بعيدة تمامًا عن العالم البيولوجي، كما يعرفه البشر وكما يدرسه العلم القديم نفسه.

هذه النقاط الخمس السابقة، هي ملخص عام التزمنا فيه الدقة الشديدة من أجل فصل الأسطورة عن التاريخ، ولا يجب أن ينساق القارئ إلى تصور ساذج يقوم على الاعتقاد الشائع بأن الصواب هو عكس الخطأ، لأن هذه القاعدة الشائعة وإن جاءت في مجال المعاملات الأخلاقية والسلوكية، فهي لا تجوز في مجال مقارنة التاريخ بالأسطورة، فمن الشائع أن الحق هو عكس الكذب، أو أن الجمال مضادٌ للقبح، ولكن في مجال التاريخ، فإن الخطأ القاتل هو اعتبار الأسطورة عكس التاريخ. ولو درس القارئ النقاط الخمس السابقة بعناية لوجد أنها تدور حول ما هو غائبٌ عن الأسطورة، أي أنها تحديدٌ سلبيٌّ للأسطورة، بينما يجب تقييم الأسطورة من خلال ما تقدمه من شرحٍ لعادات اجتماعية، أو ممارسات يومية، يتعذَّر علينا أن نقدم لها التفسير العلمي، ولهذا السبب اتجهت الدراسات المعاصرة إلى الفصل بين الأسطورة Myth والخرافة Legend والقصة Story على أساس أن الأسطورة جزء من التكوين العقلي والنفسي والإنساني بل والسياسي للإنسانية، بينما الخرافة هي انعكاسٌ لمخاوف وأوهام الإنسان، وتجسيدًا لما يدور في عقله ونفسه من صراعات نفسية. ولذلك فقصة الشاب الجميل "نرجس" الذي رأى صورته منعكسةً في الماء، وعشق هذه الصورة وأحبها حتى مات من الجوع لأنه رفض أن يترك صورته، هي

قصة وأسطورة لأنها تتحدث بشكل واقعي عن "عشق الذات" الذي نراه في كل لحظات الحياة، ومن هذه الأسطورة وُلِد تعبير "النرجسية" في علم النفس المعاصر الذي استعان بالأسطورة لكي يشرح حقيقة لا يمكن إنكارها وهي عشق كل إنسان لذاته أو صورته بشكلٍ يتجاوز أحيانًا الاعتدال، إلى درجة يفشل فيها المصاب بالنرجسية أن يقيم علاقات إنسانية من أي نوع مع الآخرين. ومن هنا بات من الواضح أن القضاء على الأساطير قد يكون ضارًا جدًا لأنه يحرم الإنسان من أدوات التعبير عن حقائق كامنة في النفس هي أعظم بكثير من أحداث التاريخ، بل هي في الواقع الإنساني نفسه هي التي تحرك التاريخ، وتصنع أحداثه. ولعل مَن يدرس التاريخ المعاصر، يذكر خرافة تفوُّق الشعب الألماني أو الجنس الآري، وهي خرافة ذهب ضحيتها ما يقرب من ٤٠ مليون قتيل هم ضحايا الحرب العالمية الثانية بسبب ما نادت به النازية الألمانية. وإذا قلنا إن تفوُّق الجنس الآري هو خرافة، فهذا يعود إلى حقيقة هامة، وهي أن تفوُّق الأجناس هو موضوع لا يمكن اثباته علميًا وهو يضاد كل ما نعرفه من حقائق تاريخية عن شعوب العالم.

خلاصة القول إن المنهج الحديث الذي يُتَّبع في دراسة الأساطير والخرافات والقصص، هو منهج أكثر اعتدالًا من الدراسة النقدية العنيفة التي سادت جامعات أوروبا في القرن التاسع عشر، حيث فرز علماء التاريخ بدون وعي الأسطورة من الواقعة التاريخية، دون أي اعتبار لما تحتويه الأساطير من حقائق حياة الإنسان أو حياة شعبٍ ما. وأحيانًا جاء فرز التاريخ من الأساطير على أساس مذهبي هو مذهب الباحث نفسه. فقد رفض علماء التاريخ من الملحدين قبول أي قصة أو نص يتضمن الإشارة إلى الشيطان والملائكة والحياة بعد الموت، لأن هذه الكائنات

لا يوجد لها أجساد بيولوجية، وهكذا جاء الإلحاد بنقدٍ شديد، ورفضٍ تام لأغلب ما جاء في تراث الشعوب، وانسحب أثر هذا النقد على الكتب الدينية كلها دون استثناء. ومع مطلع القرن العشرين بدأ الاهتمام بالعالم الروحي يعود من خلال علمي النفس والاجتماع، وبرز ما يُعرَف بالحياة الروحية الإنسانية وهي تنال أكبر اهتمام اليوم، وإن كان هذا الاهتمام لا يزال طفلًا صغيرًا، إلَّا أنه قد ينمو في أروقة الجامعات الأوروبية ويتحول إلى شخصٍ بالغ.

ما هو الحدث التاريخي؟

كان أستاذ كرسي التاريخ السابق في جامعة كامبريدج البروفيسور O. Chadwick يقول إن محاولة تحديد الحدث التاريخي، وفصل التاريخ عن الخيال هو أصعب سؤال يواجهه الإنسان الباحث الأمين. وحقًا يصدق هذا القول على أغلب وقائع التاريخ، لأن الذين يكتبون التاريخ هم من البشر. لكن تحديد واقعة تاريخية معينة ليس من الأمور المستحيلة طالما أن الباحث لا يُقيِّد نفسه بالشك المذهبي. وعلى سبيل المثال؛ "الاحتلال البريطاني لمصر" هو واقعة تاريخية رغم عدم وجود شهود أحياء عليها الآن، ولكن آثار الاحتلال البريطاني لا يمكن إنكارها وعلى سبيل المثال:

١- وجود أسماء لأشخاص من بريطانيا في سجلات مصرية.

٢- العملات وطوابع البريد والتماثيل والكلمات الإنجليزية في اللغة العامية المصرية، بل وأسماء بعض الملابس.

قد يختلف المؤرخون حول سنة الاحتلال؛ هل هي ١٨٨٢ أو ١٨٨٠ أو .... الخ.

ولكن الثابت هو الاحتلال، ومعسكرات الجيش البريطاني .. الخ هي دليلٌ لا يمكن إنكاره.

وهكذا، إذا شكَّ أحدٌ في معلومات معينة، فإن معلوماتٍ أخرى قاطعة تؤكد وجود حدث تاريخي ترك بصماته على الواقع، رغم الاختلاف حول السنة أو اليوم أو المكان نفسه. وعلى سبيل المثال؛ استشهد القديس أغناطيوس الأنطاكي في عهد الإمبراطور تراجان، وهذا يعطينا الفترة ما بين ١١٥ – ١١٧ ميلادية وهي الفترة التي أشهر فيها الإمبراطور سياسة اضطهاد الكنيسة، وهي فترة معروفة لنا من كُتب المؤرخين غير المسيحيين من الرومان الذي اهتموا بكتابة تاريخ الأباطرة الرومان، ويصبح تحديد فترة استشهاد الشهيد اغناطيوس الأنطاكي هو "تخمين" تاريخي مطلوب تسمح به الدراسات المعاصرة، ويصبح الفرق بين عام ١١٥ وعام ١١٧ هو فرق ضئيل جدًا.

ما هي بصمات الحدث التاريخي؟

من المعروف أن تزوير بصمات الأصابع أمرٌ صعب إن لم يكن من الأمور المستحيلة، فما هي بصمات الحدث التاريخي؟

أولًا: النصوص، وهي إما نقوشٌ على الأحجار، أو وثائق حكومية، أو سجلات يومية، أو أدلة مادية مثل العملات أو المباني، أقواس النصر، أو أعياد قومية.

ثانيًا: شهادة الشهود الأحياء، لا سيما شهادة شهود المعسكر المعادي أو الخِصم.

ثالثًا: وجود عادات اجتماعية، وعبارات في اللغة الدارجة أو ممارسات لا

يمكن شرحها إلَّا على أساس قبول حدث أو أحداث تاريخية معينة. ولو قلنا مثلًا: "تحالف قوى الشعب العامل"، أو "الاتحاد الاشتراكي العربي"، أو "إزالة آثار العدوان" .. كل هذه عبارات مصرية لا يمكن شرحها إلَّا بالعودة إلى تاريخ الرئيس جمال عبد الناصر وبالذات الفترة التاريخية التي تبدأ بعام ١٩٦٠.

وقد فتحت معرفة أحداث التاريخ لنا باب دراسة النصوص والتأكُّد من صحتها، سواء كانت في شكل نقوش أو كتابات مدوَّنة في وثائق. ودراسة أسلوب التمييز بين نصٍّ سليم ونصٍّ مزوَّر لم يدخل الجامعات العربية بعد، ليس لأنه فوق قدرات الباحث العربي، وإنما لأن مناهج البحث في التاريخ لا تزال في طور الطفولة. ولكن لا يجب أن نحرم القارئ من الإلمام بجانب ولو ضئيل من هذا الفن الرفيع، الذي تطوَّر في معاهد ومراكز البحث في أوروبا في بداية القرن العشرين. ويقوم أولًا على دراسة جادة للتاريخ العام الذي ينتمي إليه النص، ثم دراسة لغوية لكافة المصطلحات السائدة حتى يمكن تحديد تاريخ كتابة النص. وعلى سبيل المثال لو وجدنا عبارة مثل "ميثاق العمل الوطني" في وثيقة مصرية، فإن اللغة العربية المصرية لا تعرف هذه العبارة قبل عام ١٩٥٢ وبالتالي يمكن تحديد التاريخ بشكلٍ عام ثم بشكلٍ دقيق من الوثائق الأخرى أو الأحداث التاريخية التي أدَّت إلى ميلاد هذه العبارة "ميثاق العمل الوطني". ثم يجيء دور الآثار، وما دُوِّن في التاريخ العام. هذا الفن الدقيق لا يُقدِم عليه الباحث إلا بعد سنوات من الدراسة تشمل التاريخ — اللغة — الديانات .. الخ. وعلى سبيل المثال من يقرأ كلمة "معمودية" في وثيقة قبطية أو يونانية، فإنه على الفور يُحدِّد أن كاتب الوثيقة مسيحي أو على معرفة بالديانة المسيحية، لأن كلمة "معمودية" لا تُستَخدم قبل المسيحية للتعبير عن

الانضمام للكنيسة. وهكذا لا يكشف النصُّ عن التاريخ فقط، بل عن عقيدة الكاتب، وأحيانًا عن مستوى تعليمه والطبقة التي كان ينتمي إليها ... إلخ. وهكذا يتم تمحيص النص، والوثيقة وشخصية وعقيدة الكاتب .. الخ. كل هذا يفتح باب الجدل والحوار وأحيانًا الخصومة بين أساتذة التاريخ. وهكذا يترك الحدث التاريخي البصمات الواضحة التي لا يمكن في أغلب الأحيان إنكارها. ومهما اختلف الأمناء والأفاضل من المؤرخين، فإن حقائق معينة لا يمكن إنكارها. فقد نختلف حول هزيمة مصر أو نصر مصر عام ١٩٥٦ ولكن لا نستطيع أن ننكر أن عدوان ١٩٥٦ قد حدث، لأن الوثائق والشهود والآثار المادية هي حقائق لا يمكن إنكارها. وهذا يعني أن الشك المذهبي قد يدفع مؤرخًا إلى الاختلاف حول "تفسير" حادثة تاريخية معيَّنة، ولكن تفسير حادثة تاريخية شيء والحادثة نفسها شيءٌ آخر.

الفصل الثالث

هل يمكن الطعن في صحة صلب المسيح؟

الشك النابع من المذهب:

لو كان المسيح يسوع هو الشخص الوحيد الذي مات على الصليب، وبهذه الوسيلة الشنيعة، لقُلنا إنها واقعة فردية لا مثيل لها في عالم الإنسان، ولا يوجد حتى ما يشبهها في التاريخ، وبالتالي يجب أن تُوضَع تحت مجهر التاريخ لأنها في حقيقة الأمر من الفرادة والخصوصية بحيث أننا لا نملك أن نقارنها بغيرها. ولكن الصلب كوسيلة للعقاب والموت معروفٌ في التاريخ، وهو ما سوف تؤكده الصفحات التالية، وبالتالي يصبح موت المسيح على الصليب هو أمر شائع الحدوث تكرر قبل صلب يسوع المسيح وبعده، وتوقف بعد ذلك بسبب شناعته وقسوته. إذن نحن لسنا إزاء حدث فريد لا مثيل له، بل حدث له ما يماثله، ويصبح البحث التاريخي قاصرًا على بحث الأدلة، لا على صحة الحدث نفسه، لأن الحدث له ما يماثله، بل هو مألوف وشائع في التاريخ القديم. والأحداث التاريخية الفريدة يمكن أن تكون موضع بحث ويمكن التشكيك في صحتها، لأنها أحداث لا مثيل لها ولا يمكن مقارنتها بمثيلها، أما الأحداث المتكررة والمألوفة، فإن الطعن في صحتها صعبٌ جدًا لأنها "عادية" ومألوفة، بل و"متكررة"، وبالتالي يصبح إنكارها أو التشكيك في

صحتها ليس من أبحاث التاريخ، بل من الموضوعات المذهبية التي يرفضها أُناسٌ لهم اعتقاد ومذهب معين يملي عليهم الإنكار والشك. وعلى سبيل المثال عندما كانت الاشتراكية تدَّعي فهم التاريخ وتدَّعي أنها المذهب الوحيد الصحيح، كان الشك في جدوى الرأسمالية هو الطابع الغالب على ما يصدر من كتب ومقالات وأبحاث كتبها الاشتراكيون في السنوات الماضية. كان الشك في صحة بعض جوانب الرأسمالية أو الديموقراطية الأوروبية الغربية، مصدره المذهب الاشتراكي، وليس الاقتصاد ولا التاريخ، فالشك المذهبي يرفض أبسط وأوضح حقائق التاريخ، ليس لنقصٍ في الأدلة، وإنما لأن الأدلة نفسها مرفوضة بسبب عقيدة أو مذهب يحاول أصحابه إبرازه والدفاع عنه دون أدنى اعتبار للحقائق التاريخية الواضحة.

كيف يمكن الشك في موت شخص؟

صلبُ المسيح هو حقيقة خاصة بموت المسيح مصلوبًا. والموت حقيقة من حقائق الوجود الإنساني لا يمكن إنكارها مهما حاول المنكرون، فالثابت أننا جميعًا نموت. ولأن المسيح هو إنسان، مات على الصليب. فالحقيقة الخاصة بالصليب هي حقيقة صلب رجل معروف ومشهور وصف بأنه معلم، ونبي، وابن الله، والمسيح أو المسيا، وابن داود، وهي أوصاف خاصة بشخصية عامة يعرفها الناس، شخصية كانت لها جماهير غفيرة تتبعها ... فكيف انتهى وكيف ختم حياته؟ والجواب هو أنه مات، كيف مات؟ مات مصلوبًا على الصليب بين لصَّين. والشق الأول لا يمكن الطعن فيه لأن كل إنسانٍ يموت، والطعن في موت المسيح يعني إنكار الموت، وهو إنكارٌ لا يجوز حتى على ضعاف العقول. والشق الثاني خاص بطريقة الموت نفسها، وهو يتطلب من الذين ينكرون الصلب أن يقولوا لنا كيف مات وبأي

وسيلة، لأن إنكار واقعة من وقائع التاريخ إنما يعني أمرين لا ثالث لهما:

أولًا: أنها لم تحدث، والثابت هنا انها واقعة خاصة بالموت، والموت لابد وأن يحدث.

ثانيًا: أنها حدثت بشكلٍ آخر يختلف تمامًا عن الصلب. وهذا يحتم على صاحب هذا الرأي أن يقدِّم لنا الأدلة التاريخية على ما يقول. وهنا يجب أن نقول إن الذين ينكرون صلب المسيح هم في الحقيقة ينكرون موته، وإنكار واقعة موت إنسان مهما كان، هو إنكارٌ لأبرز ما يميز الوجود الإنساني، أي الموت، والموت قضيةٌ لا تحتاج لإثبات. وهكذا يمكن للشك المذهبي العبث بالتاريخ، ولكن الشك التاريخي نفسه يقف احترامًا لما وَرَدَ في كُتب التاريخ، وهنا علينا أن نقدِّم ما عندنا من أدلة، وأول هذه الأدلة أن الصلب وسيلةٌ معروفةٌ في العالم القديم كله، استُخدِم لعقاب القتلة واللصوص، والمفكرين، والثوار حسب شهادة المصادر التاريخية السابقة على المسيحية.

شهادة التاريخ للصلب قبل صلب المسيح

حسب شهادة المؤرخ اليوناني هيرودوت Herodotus كان الفُرسُ هم أول من استخدم الصلب كوسيلة للعقاب في الحضارة القديمة، وحسب شهادة هيرودوت قام الملك الفارسي داريوس Darius بصلب ثلاثة آلاف من سكان مدينة بابل[١].

ويذكر ديودورس الصقلي نص خطاب ملك الهند Starobates إلى الأمير سميراميس Semiramis مهددًا إياه بالصلب[٢].

([1]) Herodotus, 1:128.2.

([2]) Diodorus Siculus, 2:18.1.

وحسب شهادة نفس المؤرخ –ديودورس– قام الملك الأشوري Ninus بصلب ملك الماديين Pharnus[١].

وعن الفرس نقل الرومان أسلوب الصلب وقاموا بصلب Mithridates عدو روما واثنين من ملوك Tharace حسب شهادة المؤرخ الروماني Appian,[٢].

وهكذا دخل الفعل في اللغة اليونانية وصار فعل "يصلب – αναστανρούν" من الأفعال المعروفة التي تشير إلى استخدام هذه الوسيلة بالذات لقتل المحكوم عليهم. وطبعًا دخل الفعل في اللغة اللاتينية وغيرها من اللغات الأخرى. وظهرت كلمة صليب في اليونانية σταυρός وهي قطعة الخشب التي كان المحكوم عليه يُعلَّق عليها بدق المسامير واستخدام الحبال لرفعه وتثبيت جسده.

وهكذا تركت العادة الأثر اللغوي، أي الفعل والاسم، وكلاهما يظهر في المصادر التاريخية القديمة. ويذكر المؤرخ اليهودي يوسيفوس أحداث حصار أورشليم، حيث قام الرومان بصلب الذين دافعوا عن أورشليم. ويقول المؤرخ اليهودي:

> "وعندما أدرك المدافعون أنه لا جدوى من استعطاف الروماني سلَّموا أنفسهم. وقام الجنود الرومان بجلدهم أولًا، وبعد أن عذَّبوهم بأنواعٍ مختلفةٍ من العذاب، وقبل أن يموتوا، صلبوهم عند أسوار المدينة. وتأسف تيطس على هؤلاء لأن عددهم كان يزيد كل يوم حتى وصل إلى ٥٠٠ شخص في اليوم الواحد....
>
> أما الجنود فإنهم بوحشية وكراهية قدَّموا هؤلاء الأسرى ودقوا المسامير في أجساد الذين أسروهم وصلبوهم في أوضاع مختلفة على صلبان متنوعة. وكان عددهم عظيمًا فلم يعد لدى الجنود مكان يسمح

---

(1) Diodorus, 2:1.10.

(2) Appian, Mithridatic Wars, 97.

بصلبان أخرى بل لم يعد لديهم صلبان لأجساد الأسرى"[١].

ويشير المؤلف اليهودي يوسيفوس إلى يهودٍ صُلِبوا قبل حصار أورشليم بواسطة القائد الروماني Cumanus[٢]. وصَلَبَ الوالي فيلكس الذي حاكم بولس الرسول عددًا من اللصوص[٣] وصَلَبَ Florus عددًا من اليهود في أورشليم نفسها. بل يذكر يوسيفوس أن شخصًا يهوديًا أسره الرومان ثم صلبوه ويقول: "وبعد أن عذبوه بعذابات متنوعة وعبَّروه في النار لم يذكر شيئًا بالمرة لأعدائه وأخيرًا صلبوه، فابتسم للموت[٤].

بل صَلَبَ الرومان يهوديًا اسمه تيطس Titus خارج أسوار أورشليم لكي يُوقِع صلبه الرعب في قلوب الباقين[٥].

طبعًا تقودنا المصادر التاريخية إلى فلسطين وإلى أورشليم بشكلٍ خاص، وبعض الذين صُلِبوا ويذكرهم المؤرخ اليهودي يوسيفوس صُلِبوا في الفترة السابقة على صلب المسيح حوالي عام ٤ قبل الميلاد وبعضهم بعد حصار أورشليم عام ٧٥ ميلادية، أي بعد انتشار المسيحية.

فهل قدَّم لنا التاريخ المسيحي والأناجيل وصفًا لشيءٍ لم يحدث؟

ألا نرى هنا عبر صفحات التاريخ اليهودي نفسه، والذي يكتبه مؤرخ يهودي وقائعَ صَلبٍ لأشخاصٍ ماتوا بنفس الوسيلة التي مات بها يسوع المسيح؟

---

(1) De Bello Judico S: 449 – 51.
وراجع أيضًا: Antiquitates 17: 295.
(2) Antiqui 20:12.
(3) De Bello Judico 2: 300
(4) De Bello Judico 5: 289

(٥) المرجع السابق.

حوار الفلسفة اليونانية حول جدوى الموت على الصليب:

كما قلنا سابقًا، القتل صلبًا هو أسلوبٌ قديم تذكره كل المصادر التاريخية السابقة على ظهور المسيحية. وهنا نرى الفيلسوف اليوناني سقراط في حواره المعروف Gorgias حيث سأل Polus سقراط هذا السؤال الهام:

"إذا قُبِضَ على رجلٍ بجريمة التآمر على الحرية ومحاولة تنصيب نفسه حاكمًا وطاغية وهو ما يجعله عُرضةً للتعذيب بقطع جسده وحرق عينيه وتعذيب زوجته معه ثم أولاده بعذابات متنوعة، ثم بعد ذلك يُصلب أو يحرق. والسؤال هو: هل هذا الرجل أكثر سعادة إذا هرب أم إذا استطاع أن يصبح طاغيةً ويعيش حتى آخر يوم في حياته يحكم؟"[١].

ويرفض سقراط فكرة السعادة في الهرب أو في الحكم المستبد ويقترح عقد مقارنة بين بائسين، لأن المقارنة بينهما لا تعني أن واحدًا منهما أقل بؤسًا من الآخر وبالتالي هو أسعد، وإن كان هو نفسه، أي سقراط يعتقد بأن الطاغية الذي يموت تحت العذاب والصلب هو أكثر بؤسًا مِن الذي يهرب من العقوبة مما يجعل الحاضرين يضحكون. وقيمة هذا النص هي أنه شهادة على شيوع أسلوب الصليب كوسيلة للعقاب تدخل في حوار أكبر مثقف في زمانه (٣٩٩ – ٤٧٠ ق. م) وقد أُعجِبَ أفلاطون بحوار أستاذه سقراط وناقش نفس الفكرة في كتابه الجمهورية[٢] ويضع السؤال على لسان Glaucon الذي يسأل عن الفرق بين الظالم الكامل في ظلمه، والعادل الكامل في عدله، ويحاول أفلاطون أن يدلي برأيه في هذه المسألة،

([1]) Gorgias, 473 b-c.

([2]) Republic 361:e - 362:a

وهو أن الظالم يحتاج إلى المال والقوة ويعوزه الذكاء والحيلة، ولذلك يبدو –بسبب المال والقوة– كما لو كان شخصًا عادلًا، بينما العادل الذي يسلك بعدلٍ مطلق لن يجد المال ولا القوة، فهو شخصٌ يحب المبادئ، وسوف يظهر في النهاية كما لو كان ظالمًا. ثم يقول أفلاطون على لسان Glaucon: "سوف يُجلَد الرجل العادل ويقيَّد بسلاسل وقيود، ويفقد بصره (تقلع عينيه) وأخيرًا بعد كل هذا العذاب الشديد سوف يُصلب[١].

شهادة المصادر التاريخية الرومانية السابقة على ظهور المسيحية:

يذكر المؤرخ الروماني Livy ثم المؤرخ الروماني Valerius Maximas أن القائد الروماني Scipio عاقَبَ الجنود الرومان في الجيش الروماني الهاربين من الخدمة العسكرية في نهاية الحرب Punic الثانية بالصَّلب باعتبارهم خونة للإمبراطورية.

ويكتب الشاعر والمؤلف والفيلسوف سنيكا Seneca إلى Lucilins الرسالة رقم ١٠١ في قصيدة شعرية لاتينية يقارن فيها البطل الذي اختاره سنيكا Seneca وهو Maecenas حياته المتقدمة في السن مع المرض والشيخوخة بالموت على الصليب ومع ذلك سوف يصمد حتى آخر لحظة في حياته.

"لقد خلقني ثم صوَّرني بيدٍ غير ثابتة
قدمي ضعيفةٌ عاجزةٌ وأنا مثل الكسيح
انحنى ظهري وصار مقوسًا
تهتز أسناني وتصطك
ومع ذلك كلُّ شيءٍ مناسبٍ طالما بقيت الحياة

---

(١) المرجع السابق.

اِبق على حياتي أرجوك
حتى لو كنتُ معلقًا على صليب".

ويمضي سنيكا ليقول إن الحياة التي تسير نحو الموت في بطءٍ ليست حياةً بالمرة ولا تستحق حتى الاسم، وبعد ذلك يصف طريقة الصلب ويقول:

"كل إنسان يفكر في أن يذوي شيئًا فشيئًا بموتٍ وعذاب، موتُ كلِّ عضوٍ على حدة، أو أن تنسكب الحياةُ قطرةَ قطرة. هل هذا أفضل أم الموت مرةً واحدة؟ هل يوجد شخصٌ يرغب حقًا في أن يُعلَّق على خشبة اللعنة، يموت في بطءٍ ويتشوَّه كيانه المشوَّه والجروح القبيحة على كتفيه وصدره، ومنه تخرج نسمةَ الحياة مع كل شهقات الألم؟ كيف يمكن أن يبرر شخصٌ موته قبل أن يصعد على الصليب؟".

وسوف نشرح في فصلٍ خاص الأدلة التاريخية التي يقدمها علم الآثار والحفريات الخاصة بطريقة الصلب واستخدام المسامير. يكفي الآن أن نشير في عجابة إلى أن دق المسامير في اليدين والقدمين كان هو الشائع، وكانت هذه هي آخر مرحلة في التعذيب، إذ يسبق هذه المرحلة الجَّلد بالسياط. وشهادةُ المصادر التاريخية القديمة للجَّلد بقسوة معروفةٌ لمن يدرس كتابات بليني Pliny the Elder في كتابه Historia Naturalis فصل ٢٨: ٤٦ ولوسيان Lucian في كتابه De Bello Civili فصل ٦: ٥٤٣.

وتؤكد هذه المصادر التاريخية الصحة التاريخية لصلب يسوع المسيح لأن الجَّلد سبق الصَّلب، وهكذا يظهر من عبارة سنيكا أن "الجروح القبيحة على الكتفين والصدر" هي آثارُ الجَّلد.

الصَّلب كعقوبة على الجرائم الكبرى في القانون الروماني قبل عصر الملك قسطنطين:

يصف شيشرون Cicero الصَّلب كعقوبة على أكبر الجرائم، وظلَّ الصَّلبُ كوسيلةٍ للقتل معروفًا حتى جاء المشرع الروماني يوليوس بولس Julius Paulus في عام ٢٠٠ ميلادية وطلب إنهاء هذه الوسيلة. وكان القانون الروماني يضع أشنع الوسائل للموت على هذا النحو وحسب الترتيب التالي:

١- الصَّلب

٢- الحرق

٣- قطع الرأس

الوسيلة الأولى؛ الصَّلب كانت هي الوسيلة المرعبة. وفي المصادر القانونية اليونانية الخاصة بالقسم الشرقي للإمبراطورية في كتابات الفيلسوف اليهودي فيلون Philo بل في المصادر اليونانية الخاصة بولاية مصر حيث يهدد الحاكم الروماني بصلب كل مَن يفكر في الثورة وهو النص الذي اقتبسه يوليوس بولس المشرع الروماني Sentantiae (فصل ٥: ١٧).

والمصادر التاريخية التي تدل على أن الصلب هو أكبر عقوبة:

- Seneca, the Elder, controveriae, 8:4.
- Cacan, De Bello Civili, 10:365.
- Apuleius, Mexamophoses, 6:31.
- Xenophon, Ephesiaca, 4 :62.

وقد عثر علماء الآثار على نقشٍ كُتِبَ في عصر الإمبراطور كلوديوس

Claudius في مدينة Mura مقاطعة Lucia يذكر أن الحاكم الروماني قام بصلب عبدٍ استلم وثائق مزورة ووضعها في ملف المدينة رغم تحذيره، ويقول النقش ما يلي:

"وبالتعذيب بهذه الوسيلة (الجلد) صار من الواضح له أنه أجرم ضد النظام وهذا في حد ذاته تحذير لكل عبيد المدينة أن لا يتهاون أيًّا منهم لأن الجلد لن يكون الوسيلة الوحيدة بل العقوبة الأكبر Anwtatw Timwma".

وبالمقارنة بكتاب الفيلسوف اليهودي فيلون In Flaccum, 126 وبالوثائق اليونانية المعاصرة التي نشرها المؤرخ الإنجليزي E. M. Smallwood للوثائق الخاصة بعصر الأباطرة غايوس Gaius وكلوديوس Claudius ونيرون Nero يظهر لنا أن الكلمة اليونانية تعني الصَّلب(١). ومن مصر تصلنا وثيقة يونانية أصدرها حاكم مصر الروماني ضد عسكري مارَسَ التهديد والابتزاز وعوقب بالعقوبة الكبرى أي الصلب(٢).

ومن الموسوعة القانونية للمشرع الروماني يوليوس بولس المعروفة باسم Sententiae تظهر قائمة الجرائم التي تُعاقَب بالصلب:

١- الهرب من الخدمة العسكرية والانضمام لأعداء الإمبراطورية.

٢- إفشاء الأسرار.

٣- التحريض على الثورة والثورة.

٤- القتل.

٥- السِّحر والعرافة.

---

(1) Documents Illustrating Principates Gaius, Claudius and Nero, 1967.

(2) E. M. Smallwood, 29, 4. 42

٦- تزوير الوثائق لا سيما الوصايا الخاصة بالميراث Wills.

ولعل القارئ يستطيع أن يرى أن هذا التشريع هو بذرة التشريع المعاصر الذي تُعاقِب فيه القوانين المعاصرة على التجسس والقتل والخيانة العظمى بالقتل.

ومن دراسة القانون الروماني نعرف أن الصَّلب كان أسلوب قتل العامة من الناس لا النبلاء. ومن حيث القسوة لا يمكن مقارنة الصَّلب إلَّا بالإلقاء للوحوش الضارية بالنسبة للذين حُكِمَ عليهم، وهو ما كان يحدث أثناء الأعياد والمناسبات العامة.

وحسب شهادة المؤرخ اليهودي فيلون Philo كان العامة من الناس يجتمعون لمشاهدة الصَّلب[١].

وعندما اتهم الوالي الروماني Flaccus عددًا من يهود الإسكندرية بالثورة قام بصلبهم وتجمع عددٌ كبيرٌ من الناس حول الصلبان[٢].

بل كان المسرح الروماني يقدِّم مشاهد الصَّلب نفسها، وقام الفنانون بمشهد صلب اللص الروماني Laureolus واستطاعوا أن يسكبوا سائلًا أحمر مثل الدم. وتمت هذه المسرحية في عهد الإمبراطور كاليجولا Caligola حسب شهادة المؤرخ الروماني سوتينيوس[٣]. وحسب شهادة المؤرخ اليهودي يوسيفوس[٤].

وتمنى الإمبراطور Juvenal أن يقوم الممثل الروماني Lentulus بعملية صلب حقيقية، ولما تعذَّر ذلك تم احضار مجرم حقيقي وتم صلبه في المسرح أمام

---

(1) In Flaccan 72:84.

(٢) المرجع السابق.

(3) Suetonius, Caligual 57:4.

(4) Jusephus, Antiquitatur 19: 94.

الإمبراطور دومتيان Domitian وبعد أن عُلِّق على الصليب قُدِّم المصلوب إلى دُبٍّ متوحش مزَّقه إربًا حسب شهادة المؤرخ مارتيال[١].

واتُّبِعَت نفس الوسيلة مع فتاة مسيحية من شهداء ليون، إذ صُلِبَت على صليب ثم قُدِّمَت للوحوش بعد ذلك حسب شهادة المؤرخ المسيحي يوسابيوس[٢].

وهذا نفسه ما جعل الكاتب المسيحي ترتليان يهاجم حضور المسرح الروماني وينصح المسيحيين بعدم الاشتراك فيه[٣].

والإمبراطور الروماني المتطرف نيرون حسب شهادة المؤرخ الروماني Dio Cassius لبس جلد حيوان متوحش وكان يهجم على المصلوبين ويعذبهم بنفسه (فصل ٦٣: ١٣.٢).

وعلى الرغم من أن القانون الروماني كان يسمح بهذه الوسيلة للتعذيب والقتل، إلَّا أننا نرى عددًا كبيرًا من الكُتَّاب والفلاسفة الرومانيين رفضوا هذا الأسلوب الهمجي Barbarian بل تجاسر بعضهم وحضَّ على منعه وفي قائمة هؤلاء كان:

Apuleius, Metamorphoses, 1.15.4
Seneca, Epistulae Morales, 14:5
Cicero, Philippicoe, 13: 21
Diodorus, Sicalus, 26:31.1

لكن عقوبة الصَّلب لم تُلغَ حتى جاء الإمبراطور المسيحي قسطنطين وألغى هذه العقوبة البشعة وهي أحد مآثر قسطنطين. ولذلك كانت إحدى العبارات

---

(1) Martial, Liber spectaculorum: 7.
(2) Eusebius, Historia Ecclesiae 5: 1.
(3) Tertulian, Adversus Valentinianos.

الشائعة في اللغة اللاتينية قبل المسيحية وهي تشبه العبارة العامية: "روح جاتك داهية" هي "أتمنى أن تُدق بالمسامير في صليب"، وقد عُثِر على هذا النص: In cruce Figarus في خرائب مدينة Pompeii ونُشِرَ النصُّ في مجلدات النقوش اللاتينية التي كانت تُصدرها جامعة برلين المجلد الرابع من سلسلة Corpus Inscriptionum Latinarum نص رقم ٢٠٨٢.

وبسبب بشاعة هذه الوسيلة لم يذكرها بعض أباطرة روما رغم أنهم مارسوها حسب شهادة المؤرخين المعاصرين. وعلى سبيل المثال لم يذكر يوليوس قيصر الصَّلبَ، ومع ذلك فقد صلب ثلاثةً من الأسبان كانوا يقومون بالتجسس على الجيش الروماني[١].

ولا يدخل المؤرخ الروماني تاسيتوس Tacitus في وصف عقوبة الصَّلب في الحوليات Annals ويكتفي بالقول بأن هذا النوع من القتل كان يُستخدم ضد الذين يثورون على سلطان روما من القبائل الجرمانية.

الصلب والرعوية، أو الانتماء إلى الإمبراطورية الرومانية

الرعوية الرومانية Roman Citilizenship هي حق قانوني يشبه الجنسية في العصر الحديث يتمتع فيه المواطن برعاية وحماية القانون، وربما من الأفضل أن تُتَرجم الكلمة اللاتينية الأصل إلى "المواطنة" مع ضرورة أن نُبقي دائمًا على الفرق بين مواطن إقليم أو بلد، والمواطن الروماني، الذي ينال حق الرعاية أينما وُجِد

---

(١) راجع:

De Bello Hispaniensi, 20.5.
De Bello Gallico 7:4.

القانون والحكم والجيش الروماني.

كان الصَّلب يتم حتى في الذين أخذوا الرعوية أو المواطنة بالتعليق على شجرة يابسة Arbor Infix وكانت جريمة الخيانة هي الجريمة الكبرى التي تستوجب هذه العقوبة.

وحسب القانون الروماني القديم المعروف باسم قانون Romulus كان الخائن يُصلَب لكي يقدَّم ذبيحةً للإله زيوس Zeus حسب شهادة المؤلف الروماني ديونيسيوس الملقب باسم Halicarnssus في مؤلف الآثار الرومانية Antiquitates Romanea 2: 10.3.

ومن القرن الثاني قبل ميلاد ربنا يسوع المسيح كان التعليق على خشبة أو شجرة يوصَف باسم "الصَّلب" حسب شهادة الكتاب الرومانيين مثل:

Ovid, Amores 1:12
Senca, Epistrlae Mouales 10:1
Servius, Scholion in Georgica, 1.501

وفي اللوحات الاثنى عشر التي تُلخِّص القانون الروماني يذكر بليني Pliny الكبير هذه العقوبة[١]. وقام قائد الجيش Scipio الكبير بصلب كل الذين هربوا من الجيش أثناء الحرب مع قرطاجنة في نهاية الحرب الثانية Punic War لأن هؤلاء احتموا بحق الرعوية الرومانية، ومع ذلك تم الصلب حسب شهادة كل من:

Livy, 30:43.13
Valerius Maxiumus 2.7.12

وهكذا كان الهرب من الخدمة العسكرية، لا سيما أثناء الحرب يُقابَل بكل قسوة دون تردد من أجل تحقيق الانضباط، ولذلك السبب قام القائد الروماني

(1) Historia Naturalis 18:3.12.

Pleminius بصلب اثنين من ضباطه عام ٢٠٤ قبل الميلاد حسب شهادة كل من ديودور الصقلي Diodorus Siculus 27:4.4 والمؤرخ الروماني ليفي Livy, 29:9.10.

وصلب هذين الضابطين كما يذكره هذان المؤرخان "تم بعد تعذيب بالجلد وتعذيب بكل الوسائل التي تُتَّبع مع العبيد وبعد أن صَلَبَهم رفض دفن جثيتهما".

ولما صَلَبَ Verres المواطن الروماني Garius في Messina أصر على أن يجعل وجهه متجهًا نحو روما وهو مُعلَّقٌ على الصليب حتى يتذكر خيانته لأنه اتُّهِم بالتجسس لحساب سبارتاكوس Spartacus حسب شهادة شيشرون(١).

وقام القائد الروماني Gessius Florus بصلب اليهود الذين حصلوا على حق الرعوية الرومانية، أي رغم انتمائهم إلى "المواطنة" عشية حرب عام ٦٦ ميلادية قبل حصار أورشليم. وأيضًا بعد الجلد والتعذيب. وكانت تهمة الخيانة هي السند القانوني لصلب هؤلاء حسب شهادة المؤرخ اليهودي يوسيفوس(٢).

والإمبراطور Galba الذي درس القانون قام بصلب أحد الأوصياء Guardian لأنه دسَّ السُّمَ لمن كان وصيًا عليهم حتى يرث أملاكهم رغم احتجاج الوصي بأنه كان مواطنًا رومانيًا، ولكن Galba أمر بصلبه على صليب كبير دُهِن باللون الأبيض حسب شهادة المؤرخ الروماني سوتينيوس(٣).

بل حتى الحاكم الروماني Malchus أمر بصلب ابنه Cathalus في مدينة قرطاجنة ويقول النص:

---

(1) Cicero, In Verrem 2:5.15.
(2) De Bello Judaico, 2:308.
(3) Suetonius, Galba, 9:2.

"هو وكل الذين ساعدوه على التمرد يُوثَق على صليب كبير أمام المدينة"[١].

ولعل أهم واقعة صلب يعرفها التاريخ الروماني هي محاكمة Rabirius عام ٦٣ قبل الميلاد الذي تولى شيشرون الدفاع عنه أمام مجلس شيوخ روما وقام T. Laienus بتولي تقديم الاتهام. ودفاع شيشرون هو أقدم دفاع قانوني كان يهدف إلى إبعاد هذه الوسيلة الفظيعة لإعدام شخص ويقول شيشرون في دفاعه:

"ما أفظع أن تعلن تهمة أمام الناس حتى لو كانت مجرد غرامة والأفظع منها العقوبة، ولكن على الرغم من هذه المصيبة، فنحن لا زلنا أحرارًا ورغم التهديد بالموت، إلَّا أننا لا نخاف من أن نموت كرجال أحرار. ولكن يجب على المدعي العام أن يحاول أن يُبعد من فكره حتى مجرد كلمة الصليب من عينيه ومن أذنيه، بل ومن حياة كل مواطن روماني"[٢].

ومع هذا فقد فشل شيشرون وصُلِب رابيريوس Rabirius على صليب.

([1]) Justin, Epitome 18:7.15.

([2]) Cicerom Pro Rabiriom chap 16.

الفصل الرابع

جهالة الصليب

يقول الرسول بولس إن كلمة الصليب عند الهالكين جهالة (١كو ١٨: ١) لأن يسوع المسيح المصلوب هو لليهود عثرة ولليونانيين جهالة (١كو ١: ٢٣) والجهالة أو Μωρία ليست مجرد رفض فلسفي لتعليمٍ يراه الفلاسفة جهلًا، بل الموضوع برمته أعمق من ذلك بكثير. إذا عدنا إلى تقليد الكنيسة القديم وجدنا أن الشهيد يوستينوس Justin يقول لنا إن المجتمع الروماني اليوناني اتهم المسيحيين بالجنون Μανία:

> "وهم يقولون إن جنون المسيحيين مصدره هو أنهم يضعون إنسانًا مصلوبًا في المقام التالي بعد الله الأبدي وغير المتغير وخالق الكون" (الدفاع الأول فصل ١٣: ٤).

فالاتهام بالجنون مصدره هو أُلوهية المصلوب، وهو قلب وجوهر "الإنجيل" الخبر السار أو البشارة الخاصة بالخلاص، وهكذا حسب شهادة الشهيد يوستينوس نرى أن الاتهام بالجهالة هو اتهامٌ بالجنون. كيف يمكن أن يقول عاقل إن القوي القادر يُصلَب ويموت على الصليب؟ ويلاحِظ الشهيد يوستينوس أن الديانة الوثنية في زمانه كانت تدَّعي أن الآلهة قامت بأعمال غريبة وأنها تنزل من السماء وتصنع معجزات وبعد ذلك تعود إلى السماء، ولكن "لا يوجد لدى الوثنيين قصة أو خبر

مثل خبر المصلوب (الدفاع الأول فصل ٥٥: ١). وإذا عُدنا إلى التاريخ وجدنا أن أقدم وصف وثني للديانة الجديدة قد سجَّله بليني الصغير Younger Pliny حيث قام باعتقال بعض المسيحيين وتحت التعذيب والاستجواب حصل على بعض المعلومات، ولكنه لم يجد فيها شيئًا يستحق كل هذا العناء. ويسجِّل بليني الصغير أن المسيحيين يجتمعون فجر الأحد وأنهم يرتلون تراتيل للمسيح الإله: "لم أكتشف شيئًا شاذًا وإنما خرافةٌ غريبة" (رسالة ١٠: ٩٦). والخرافة هذه هي ما يسجِّله صديقه المؤرخ الوثني الروماني تاسيتوس Tasitus حيث يقول في وضوحٍ كامل: "المسيح Christus، وهو الاسم الذي منه جاءت هذه الدعوة قد عُذِّب وعوقب في عهد طيباريوس Tibarius وبواسطة بيلاطس البنطي الوالي"، وقول نفس المؤرخ إن هذه الدعوة الشريرة تنتشر بسرعة لا سيما في روما (الحوليات Annals 15: 44.3). وتاسيتوس كان أصلًا واليًا رومانيًا في إقليم آسيا وهناك عرف المسيحية لأنه هو نفسه اعتَقَلَ وحاكَمَ مسيحيين واستجوبهم بنفسه.

وفي عصر الامبراطور ماركيوس اوريليوس Marcus Aurelius يكتب المؤلف الوثني كورنيليوس فرنتو Cornelius Fronto عن المسيحية والعبادة المسيحية وعنه ينقل الكاتب والمؤلف المسيحي مونكيوس فيلكس Minucius Felix الاتهام الموجَّه للمسيحيين ويقول:

> "وتدور طقوسهم حول انسان مات بسبب جرائمه على خشبة الصليب Crucis Ligna وهؤلاء المخلوقات البائسة لا يستحقون الهياكل التي يمارسون فيها هذه العبادة الحقة (العبادة التي تليق بهم) (Octavius, 9:4).

وعندما يكتب المؤلف المسيحي مونكيوس فيلكس رده على هذا الاتهام لا

ينكر الصليب أو المصلوب، وإنما يقول إنه لا يوجد في تاريخ البشرية قوم أضافوا صفة الألوهة لمجرمٍ مات بسبب جرائمه، لأن ضمير الإنسان وعقله لا يطاوعه على تقديس المجرمين، ولكن المسيح مات لأسبابٍ أخرى، وهي قضية الخلاص. وعن الصليب يقول:

"إننا لا نعبد الصليب، وإنما أنتم الذين تسجدون للأصنام المصنوعة من الخشب والتي تعتقدون أنها مقدسة" (المرجع السابق ٢٩: ٦).

وقد نقل القديس أوغسطينوس في كتاب مدينة الله (الكتاب ١٩: ٢٣) معلومات شيقة عن إنسانٍ اعتنقت زوجتُه المسيحية وذهب الرجل إلى هيكل الإله أبولو يحاول أن يجد وسيلةً يغري بها زوجته لتعود إلى الوثنية ويسمع الرجل كلمات الكاهن الوثني الذي ينطق باسم الآلهة وبالذات الإله أبولو Apollo:

"دعها تستمر في اتباع هذه الديانة كما يحلو لها وأن تستمر في خيالاتها لا سيما الصلوات التي تُقال كمرثاةٍ على هذا الإله الذي مات والذي حكم عليه القضاة بالعدل ونُفِّذَ فيه حكم الموت وهو في ريعان شبابه ومات ميتةً شنيعةً بواسطة المسامير".

هذه الكلمات لا تختلف عن كلمات بلليني الصغير، وتاسيتوس وكورنيليوس فرنتو وكلها تتجه في اتجاهٍ واحدٍ فيه تناسق تام:

١- مات المسيح.

٢- على الصليب.

أما الغريب والشاذ في هذا الاعتقاد فهو:

١- إنه إلهٌ والإله قوي قادر.

٢- إنه مات فعلًا، فكيف يمكن أن يحدث هذا؟

ويُجمِع هؤلاء على رفض الديانة الجديدة لأن حكم الموت لا يصدر على شخصٍ بريء. هذه بالطبع هي الخلفية التاريخية التي تجعل الرسول بولس يكتب: "كلمة الصليب جهالة" لأن هذا التعليم يتعارض:

١- مع القانون الروماني.

٢- مع فكرة المثقفين اليونانيين عن الله غير المتغيّر الذي لا يتألم. وطبعًا سوف يأتي كاتبٌ آخر يكتب بضراوةٍ وعنفٍ بالغٍ، وهو الفيلسوف الوثني كلسوس Celsus الذي ضاع كتابه ولكن احتفظ العلامة أوريجينوس بشذرات طويلة منه كان قد اقتبسها للرد عليها. ويردد كلسوس نفس الكلام السابق ولكن يضيف عليه الجديد؛ وهو أن يسوع لم يكن له ثقافة ولا معرفة بالفلسفة ولا يبدو أنه تعلم شيئًا. (الرد على كلسوس الكتاب ٦: ٣٤). ولذلك، فحتى أتباع يسوع ليسوا سوى رعاع من العمال والذين يعملون في مهن وضيعة جدًا مثل الحدادين وصانعي الأحذية والخدم والعبيد (الرد على كلسوس ٣: ٥٥). وبالتالي ما هو المغري في هذه الديانة؟

السؤال الهام:

لم تكن فكرة موت الأبطال الذين لهم صفة الألوهة غريبة على العالم القديم. فقد مات أوزيريس Osiris وقطع أخوه ست Set جسده إلى ٣٦ قطعة. ومات آتيس وأدونيس Attis, Adonis وهرقل Heracles. والملاحم والأساطير القديمة حافلة بموت هؤلاء. ولم تكن هذه الأساطير مجهولة عند عامة الناس والمثقفين، ويثور السؤال لماذا الهجوم على المسيحية؟ ولماذا يقاوم المثقفون هذه الدعوة الجديدة بهذا العنف؟

والجواب كما نراه هو:

١- مات المسيح يسوع على الصليب ولم يمت في معارك، وموت الصليب هو موتُ عارٍ لا يقبله المثقف الروماني، وهذه هي النقطة التي تثير هؤلاء وتدعوهم لمقاومة المسيحية لأن بطل هذه الدعوة الجديدة مات بدون مجدٍ، ومات بشكلٍ شنيع ومع المجرمين فقد صُلِبَ بين لصين.

٢- وطبعًا كانت قوة الأساطير القديمة قد بدأت تأفُل بسبب الزمن ولأن أصحاب هذه الأساطير كانوا يدركون عدم جدواها، أمَّا موت المسيح فهو واقعة تاريخية لا خلاف حولها، والمشكلة ليست في صحة موت المسيح وإنما المشكلة في أسلوب الموت وهو الصليب: أشنع ما عُرِفَ في العالم في ذلك الزمان.

٣- واسم الصليب كما نراه في المؤلفات الوثنية هو خشبة المجرمين عند سنيكا[١]. وخشبة العار كما وردت في الكتابات اللاتينية السابقة على المسيحية[٢]، وغيرها من الأسماء الشنيعة.

هذا بالطبع هو السؤال الخطير الذي يجعل الفيلسوف كلسوس يرفض أن يقبل أن يموت إنسانٌ على خشبة العار ويكون هذا الإنسان هو إله (الرد على كلسوس ٦: ١٠). وقد صدر الحكم بالطبع طبقًا للقانون الروماني، فكيف يتعبد شخصٌ مثقف لرجل أو إنسان يُعتبر من وجهة نظر القانون السائد في إمبراطورية مترامية الأطراف، أنه خارجٌ على القانون. وحتى يوسيفوس المؤرخ اليهودي وهو أحد مستشاري القائد الروماني تيطس الذي حاصر أورشليم يرى أن موت الصليب – حسب كلماته– هو "أشنع ميتة" يمكن أن تصيب إنسان. وحتى اليهود الذين كانوا

---

(1) Seneca, Epistlae Morales 101:14.

(٢) راجع النصوص اللاتينية الرومانية (Anthologia Latina, 415:23)

يـدافعون عـن نقطـة حصـينة تُعـرف باسـم ماشـيروس Machaerus تفاوضـوا مـع الرومان على الخروج بسلام عندما هددهم الرومان بالصلب[١].

ويكتب الفيلسوف الوثني لوسيان عن الصليب ويربط بين الصليب وحرف T في اللاتينية واليونانية ويقول إن الصليب جعل حرف T هو رمز للعذاب والشر لأنه ارتبط بالأداة الشنيعة التي كان الطغاة يستعملونها لصلب البشر.

واتبع الطغاة شكل حرف T وقلَّدوه وجعلوا من هذا الشكل أداة تُصنع من الخشب لكي يُصلب عليها الرجال[٢].

ودخـل رعـب مـوت الصـليب في كتـب تفسـير الأحـلام، ويكتـب المؤلـف اليوناني أرتيميدوروس Artemidorus في أحد كتب تفسير الأحلام ويقول إن من يحلم بأنه يطير مع الطيور إنما هو يحلم حلمًا شريرًا لأنه يحلم بالموت مع المجرمين الذين يموتون على الصليب[٣].

وهكـذا تجـيء النصـوص القديمـة السـابقة علـى صـلب المسـيح مـن العـالم الرومـاني واليـوناني والـتي تـرى أن هـذا المـوت بالـذات هـو أشـنع مـا يمكـن أن يحـدث لإنسان، وهذا يفسر لنا أن الرسول بولس كان يعرف ماذا يقول المجتمع المعاصر عن الصـلب ومـوت الصـليب، ولـذلك لم تكـن عبـارة: "كلمـة الصـليب عنـد الهـالكين جهالـة" هـي كلمـة شـاردة، بـل يكمـن خلفهـا الرعـب والفـزع الـذي يصـيب أشـجع النـاس. ولـذلك يقـول المؤلـف اليـوناني مـانيثو Manetho في كتابـه "تفسـير الطـالع والحظ" والذي كتب على شكل شعر:

---

(1) De Bello Judiaco 7:20.
(2) Ludicium Vocalium: 12.
(3) Oneirocriticon, 2:28.

"عقوبة تؤدي إلى شد أعضاء الجسم،
والخشبة هي المصير الأخير،
تدق في أجسادهم المسامير،
حتى تجيء النهاية المرة،
طعام رديء للطيور آكلة اللحوم (النسور)،
والكلاب المتوحشة الجائعة" (Apotelesmatica, 4:198).

ومنذ القرن الثالث قبل ميلاد ربنا يسوع المسيح، وحسب شهادة المصادر اليونانية واللاتينية يكتب المؤلف الوثني بلاوتوس Plautus أن كلمة الصليب هي "لعنةٌ" على ألسنة عامة الناس لا سيما العبيد. وها هي المصادر القديمة التي تجعل كلمة الصليب تعني اللعنة والموت والعار والشر والفضيحة حسبما وردت في المؤلفات التالية:

Plautus, Aularia, 522
Petronius, Satyricon, 126:9

فهل اختارت المسيحية خرافةً جميلة سهلة يصدقها الناس؟ هل اخترعت الكنيسةُ قصةً تجعل مَن يسمعها يشعر بالفخر والمجد والعظمة والقوة، أم أن الحقيقة التاريخية المفزعة والمخيفة هي التي فرضت نفسها على الواقع؟ وحتى عند اليهود وليس الرومان أو الشعوب الوثنية فقط كان موت الصليب هو لعنة حسب نص سفر اللاويين "ملعون كل مَن عُلِّق على خشبة" (لا ٢١: ٢٣). وهكذا، فلماذا اختارت المسيحية ما يرفضه العقل والقانون والثقافة لكي يصبح قلب الإنجيل وجوهره؟ أليس لأن الحق هو حق حتى لو رفضه كل الناس؟

عثرة الصليب:

عندما يدرس أيُّ باحثٍ الأساطير القديمة يجد في طياتها أبطال الملاحم الذين استطاعوا الإفلات والهرب من الموت ومن العقوبة. ولكن بنظرة فاحصة على الأدويسة Odyssey وغيرها، يجد القارئ على سبيل المثال لا الحصر كيف هرب بعض الأبطال من الموت أو من العقوبة بالقيام "بحيلة" أو "خدعة" تجعل هؤلاء بعيدًا عن متناول أيدي الآلهة الأخرى. فقد عشق "اكسيون Ixion" العشيقة المفضلة "هيرا Hera" عند الإله العظيم Zeus وعندما يهيم بها لكي يحتضنها تتحول هيرا Hera إلى سحابة أما هو إكسيون Ixion فقط رُبِطَ في قرص الشمس عقوبةً له. ويتزوج زيوس Zeus كبير الآلهة "ليدا Leda" وينجب منها "هيلين Helen" ولكن أثناء حصار طروادة Troy ينقلها "هرماس Hermas" إلى مصر حيث تبقى سالمة. ويكتب "أوفيد Ovid" قصيدته Festi (701 :3) عن الإلهة Vesta التي حملت قيصر إلى معبد جوبيتر Jupiter في السماء قبل اغتياله، وأن الذي طُعِنَ هو خياله فقط. وهكذا استطاع هؤلاء الأبطال الهرب بواسطة آلهة أخرى أو بالخدعة والحيلة. والسؤال هنا على لسان الفيلسوف الوثني Celsus:

> "وإذا كان يسوع عظيمًا بهذا القدر، فلماذا لم يُظهر أُلوهيته بالاختفاء فجأة وهو على الصليب"[١].

فإذا كانت الأساطير تؤكد أن هؤلاء الأبطال والآلهة استطاعوا الانتصار ولو بالخدعة، فلماذا لم يهرب المسيح ولماذا لم يختفِ؟ لماذا يُصر العهد الجديد بل واللاهوت المسيحي والتاريخ نفسه ثم العبادة أو الليتورجية على أن يظل الصليب هو

---

(١) العلامة أوريجينوس الرد على كلسوس ٢: ٨٦.

محور وقلب كل ما يدور في داخل هذه الديانة الجديدة؟ كان العالم الوثني القديم يعتقد بأن إنكار الجسد أو تحول الجسد إلى خيال هو من عمل الآلهة وخداع قدراتها، ولذلك ظهرت هذه الفكرة "Docitism – الخيالية أو المشبهة". فالعيون ترى والآذان تسمع ولكن الآلهة نقلت أو حملت الإنسان أو البطل أو قيصر إلى السماء وظل الناس على الأرض يُعذِّبون "الخيال"، أما الشخص نفسه فهو في العالم السمائي أو العلوي. ولأن الجسد حقير وقذر ودنس، ولأن الجسد في حقيقة الأمر هو عقابٌ للروح على خطية حدثت في العالم الروحي، وهو الذي أدى إلى مجيء الروح في جسد في هذه الدنيا، ولأن الروح أسمى من المادة .. باتت رسالة الصليب مرفوضةً عند الذين قبلوا هذه الآراء القديمة، وصار من الضروري عندهم أن تعاد كتابة الإنجيل بشكلٍ يرفع هذه العثرة، ولذلك ظهرت الهرطقة "الغنوسية" Gnosticism تحاول أن تُبعد الجسد أولًا ومتى تم إبعاد الجسد، استطاعت أن تُبعد الصليب ثانيًا. الجسد وبعد ذلك الصليب، فالجسد هو المانع الأول وبعد ذلك يصبح المانع الثاني لا وجود له، لأن يسوع المسيح يصبح روحًا والروح لا تُصلب وبالتالي الذي صُلب هو خيالٌ بلا وجود بيولوجي، أو كيان مادي. وعندما وقعت الغنوسية في فخ كراهية الجسد وتحول الإنجيل إلى دعوةٍ روحانية بحتة صارت كل القضايا الجوهرية في الإيمان المسيحي المرتبطة بالجسد أو بالناسوت عمومًا، مرفوضةً تمامًا. فقد رفضت الغنوسية قيامة الجسد لأن الجسد أداةُ تعذيب والقيامة تعني بقاء العذاب والسجن في اللحم والدم إلى الأبد. كما رفضت الغنوسية طعام الحياة، الإفخارستيا، لأن الجسد بائدٌ زائل، وبالتالي الجسد الواهب الحياة للعالم (يوحنا ٦: ٥٢) هو أمر مرفوض. ورفضت الغنوسية أن تكون الكنيسة هي جسد المسيح، لأن

المسيح نفسه بلا جسد، وتحولت جماعات الغنوسية إلى العرافة والسحر والديانات السرية وسقطت الغنوسية تدريجيًا في بئر الوثنية القديمة وتحولت في النهاية إلى شيع ومدارس ماتت بعد نهاية القرن الثالث لسببٍ واحد هو تحريم الزواج... وبذلك حفرت الغنوسية قبرها بيديها، لأنها رفضت أن تجعل الأسرة هي نواة الجماعة. أما الكنيسة فلم تقبل أن تهادن أو تحول إيمانها بالمصلوب. وسار جيش شهداء يحمل كلُّ شهيدٍ صليبه نحو الجلجثة لكي يُصلب مع المسيح، وتحوَّل الصليب إلى عثرة لكل ديانات العالم ولكل صور التدين فهو:

أولًا: عثرة لليهودية:

التي تؤمن بأن الأعمال الصالحة وليست رحمة الله هي سبب خلاص الإنسان. والتي لا تقبل أن يتألم العظيم أو يتنازل الملك، وظلت اليهودية تنتظر "المسيح" البطل مثل شمشون، ولما جاء المسيح الخادم المتألم رفضت اليهودية الخدمة والألم.

ثانيًا: عثرة للتوحيد:

ومَن الذي يقبل أن يكون الإله الواحد هو الخالق والمخلص والفادي. من السهل أن يقبل العقل فكرة الإله الواحد الخالق، فقد دافع فلاسفةٌ من مختلف مدارس الفلسفة اليونانية عن "التوحيد" وحاربوا الشرك وتعدد الآلهة وكانت لهم مقالات وكتبٌ تسخر من الآلهة وفكرة الشرك. ولكن ذلك رغم أهميته القصوى للحضارة والثقافة لا يعادل صدمة الصليب، لأن الإله الواحد يرسل ابنه لكي يتجسد ولكي يشارك الإنسانية في الآلام ثم الموت لكي يفتح باب رجاء القيامة

والحياة الأبدية. فكيف يقبل العقل أن يتألم العظيم الواحد وأن يشترك مع الإنسانية إلى هذا الحد؟

وصدمة الصليب للتوحيد سوف تظل باقية ما بقى البشر على هذه الأرض؛ لأن الواحد المترفع والعظيم الذي يقبل بالتنازل والخدمة ومشاركة الإنسانية في أعقد مشاكلها وهي الألم والموت هو مرفوضٌ من الفكر السياسي والنظام الاجتماعي.. ولذلك ستظل عثرة الصليب باقية. وحقًا قال الفيلسوف الوجودي كيركجارد: "لو آمن كل الناس بالمسيحية وصارت المسيحية ديانة كل البشر، فهذا يعني إما أن المسيحية تنازلت عن الصليب، وإما أن الناس لم يفهموا المسيحية كديانة المصلوب".

ثالثًا: عثرة للوثنية:

كان للوثنية نظامها العسكري والسياسي والاقتصادي والاجتماعي، وكان وراء هذا كله الفلسفة والفنون والآداب من شِعرٍ ونثر ونحت ورسم وموسيقى .. الخ. لم تكن الوثنية مجرد معابد للآلهة المتعددة، بل كانت مغروسةً في قلب وضمير الإنسانية. كان الشِّركُ وتعدد الآلهة ضروريًا لكي تبقى المتناقضات الأساسية في المجتمع الوثني. ولو ألقى الباحث نظرةً على هذه المتناقضات لأدرك فورًا لماذا تُمجِّد الوثنيةُ القوةَ وتحتفظ بتعدد الآلهة:

١- تناقض القوة المطلقة للحاكم مع الحرية الشخصية للفرد.

٢- تناقض الفتوحات العسكرية والصراع الحربي الدائم مع جمال ووداعة الحياة وحاجة الإنسان للاستقرار والسكينة.

٣- تناقض احتياجات الإنسان البيولوجية مثل الجنس والطعام مع واجبات

الإنسان الاجتماعية مثل حفظ النظام وعدم الاعتداء على الآخرين ونشر السلام والتعاون.

كل هذا وغيره من تناقضات أساسية كانت تحتاج إلى قوات إلهية لكي تحرس وتحمي كل قوة أو كل إله له مصلحة معينة. وجاء "توحيد" المسيحية لكي يؤكد اشتراك الإله الواحد المثلث الأقانيم مع الإنسان في مأساته ويتنازل إليه لكي يرفعه إلى مستوى أعظم، أو حسب عبارة القديس أثناسيوس: "أخذ الذي لنا وأعطانا الذي له" .. هذه هي صدمة الصليب للوثنية. ولهذا السبب تركت لنا المؤلفات الوثنية الكثير من الأفكار والآراء التي تحتوي على معاداة قاطعة للمسيحية وكانت كل السخرية والنقد اللاذع من اليهودية والوثنية معًا موجَّهًا إلى موت المسيح على الصليب، لأن الذي مات هو إلهٌ، ويا لهول إلهٍ يموت، وكيف؟ مصلوبًا. ويا للمصيبة؛ فقد قُدِّم للمحاكمة وحُكِمَ عليه بالموت ولم يستطع أن ينقذ ذاته ..

وترك لنا صبيٌّ صغير رسمًا منحوتًا في حجر جيري لشخصٍ مصلوب له رأس حمار وكَتب عليه باليونانية "الإله الذي يعبده ألكسيمانوس".

وطبعًا هذه السخرية لها تاريخٌ قديم، فقد انتشرت فكرة عامة شائعة بين الوثنيين بأن اليهود يعبدون حمارًا في الهيكل. وتمكن المؤرخون من نقض هذه الفكرة حتى القرن الثاني قبل الميلاد في كتاب المؤلف الوثني Mnaseas Patra ونُشِرت النصوص الخاصة بهذا الاتهام في الدراسة المعاصرة:

M. Stern, Greak and Latin Authors on Jesus and Judaism, 1974.

هذه السخرية تؤكِّد بشكلٍ غير مباشر أن المصلوب هو من اليهود أصلًا وهو ابن الله الإله الذي يعبده اليهود. ويأتي كاريكاتير آخر من "المجر"، رُسِمَ على

بلاطة عُثِرَ عليها في المنطقة الأثرية في Oroszvar، وهي أقدم المقاطعات الرومانية في هذه المنطقة وتُدعى حسب التقسيم الروماني القديم مقاطعة Gerolata في إقليم Pannonia. ويظهر في الرسم الذي نشره عالم الآثار المجري K. Saga شخصًا يحمل صليبًا على شكل حرف T ولسانه يتدلى من التعب.

إنها نفس محاولة السخرية من المسيحية التي يدور إيمانها كله حول يسوع المسيح وحول الصليب.

وهنا لا نستطيع أن نفهم عثرة الصليب إلَّا في ضوء كلمات "ميلتو Melito" أسقف ساردس Sardes وعنوانها "البصخة". وخدم ميلتو في الفترة ما بين (١٣٨ – ١٨٠) وعاصر كلًا من الامبراطور أنطونيوس بيوس Pius وماركوس أوريليوس Aurelius:

"هو فصحُ خلاصنا،
هو الذي تألم مع الذين تألموا من البشر،
كان في هابيل عندما ذُبِحَ،
وفي اسحق هو الذي رُبط،
وفي يعقوب تغرَّب،
وفي موسى طُرد،
وفي الحمل (حمل الفصح) ذُبح،
وفي داود ناله الاضطهاد،
وفي الأنبياء نال التعيير،
هو الذي تجسد من العذراء،
وعُلِّق على الخشبة،
ودُفن في الأرض،
وهو الذي قام من بين الأموات،

وهو الذي صعد إلى سماء السموات". (البصخة ٦٩ – ٧٠)[١].

وبعد ذلك يُكمل ميلتو عظته وهو يوجِّه كلامه لليهود:

"يا إسرائيل المذنب، لماذا فعلت هذه الفعلة الشريرة،
وجلبت الآلام على ربك،
على سيدك،
الذي صوَّرك،
الذي خلقك،
الذي أعزك،
الذي أعطاك اسمك إسرائيل،
ولكنك لا تستحق هذا الاسم،
لأنك لم ترَ فيه الله،
ولا أدركت أنه ربك،
لم تعرف يا إسرائيل،
أنه بكر الله،
المولود قبل كوكب الصبح،
الذي أمر فصار نورٌ،
الذي خلق النهار،
الذي نشر الظلمة لليل،
والذي حدد ورسم حدود كل طبائع المخلوقات،
الذي جفف اليابسة،
ونشر السموات مثل سقف،
الذي يضبط الكون،

(١) راجع الترجمة الإنجليزية للأصل اليوناني التي نشرها
R. C. White, Melito of Sardis, Sermon on the Passover, p39 – p40.

الذي رتَّب الكواكب في السموات،
وينير النورين الشمس والقمر"[١].

ويلاحِظ القارئ هنا أن عثرة الصليب تظهر بوضوح في أن المصلوب هو خالق الشمس والقمر والسماء والأرض وهو مخلص إسرائيل،

"الذي عُلِّق على الصليب وعنوان علته ثُبِّتَ، مؤكدًا أنه ذبح.
من هو؟ يا لشقاء مَن يخبر ولكن يا لويل مَن يصمت.
لذلك اسمعوا وارتعدوا مِن الذي ترتعد منه الأرض.
الذي عُلِّق هو الذي علَّق الأرض،
الذي سُمِّر بالمسامير هو الذي ثبَّت السماء،
الذي يحفظ الكل هو الذي عُلِّق على خشبة،
السيد هو الذي ظُلِم،
الله صُلب (قُتل)،
وملك إسرائيل ذُبح بواسطة أيادي إسرائيل"[٢].

ولكن الجانب التاريخي للصلب ليس هو فقط رسالة الإنجيل. وإنما رسالة الإنجيل كما يراها ميلتو هي كلمات المسيح نفسه التي تنساب في العظة حاملةً معها المواعيد العظمى التي كان الإنسان في عطشٍ شديدٍ إليها.

"تعالوا يا قبائل البشر،
تعالوا يا من تدنستم بالخطية
تعالوا لكي تنالوا غفران خطاياكم لأنه هو يقول:
أنا هو الغفران،
أنا هو الفصح الذي ذُبح،

---

(١) المرجع السابق ص ٤١ – ٤٢.
(٢) المرجع السابق ص ٤٧.

أنا هو الحمل الذي ذُبح لأجلكم،
أنا هو الفدية،
أنا هو حياتكم،
أنا هو خلاصكم،
أنا هو القيامة،
أنا هو ملككم،
أنا أهديكم إلى السموات،
أنا أعلن لكم الآب الأبدي،
أنا أحميكم بيدي اليمنى،
هو الذي خلق السموات والأرض،
وفي البدء صوَّر الإنسان،
هو الذي أعلنه الأنبياء والناموس،
هو الذي تجسد من العذراء"[١].

(١) المرجع السابق ص ٥٠.

الفصل الخامس

الصليب كعقوبة في القانون الروماني

كان الصَّلبُ عقوبة الهاربين من الخدمة العسكرية والثوار ضد حكم روما، والمجرمين واللصوص، وهكذا اختلط الجانب السياسي بالجانب الاجتماعي والديني. كان الفكر السائد في ذلك الزمان عاجزًا عن فصل الدين عن السياسة وفي الحياة الاجتماعية. وعلى سبيل المثال كان قانون قرطاجنة السائد في عصر الإمبراطورية الرومانية قبل ولاية قسطنطين الكبير يقضي بصلب قادة الجيش إذا هُزموا في معركة عسكرية، أو فروا من الخدمة، وذلك حسب شهادة المؤلفين الرومانيين أنفسهم(١).

ويقول الكاتب الروماني "ليفي – Livy":

"Ubi in crucem tolli imperatores dicuntur" 38: 48.12

(حيث قيل إن [جنرالات] قادة [الجيش] يُصلبون).

وكان التهديد بالصلب يُتَّبع كأسلوب لإنهاء حصار مدينة (وهو ما سوف نشير اليه في الفصل التالي). أما ما هو جدير بالاعتبار هنا، فهو موقف القانون الروماني نفسه. كانت الحرب الأهلية وهي الصراع على السلطة في روما تجعل كافة الأطراف تلعب لعبة السياسة في حذر، طبقًا لشهادة شيشرون Cecero الذي يقول بكل وضوح:

---

(1) Polybius, 1.11.5/1.24.6

"العدو المخيف الذي يرعب كل الناس الصالحين هو الصلب والتعذيب الذي يرافقه"[١] وراجع نفس الفكرة عن لوسيان Lucian [٢].

وكان الثوار يُصلَبون بعد تعذيب شديد، وكان بعضهم يقابل هذا النوع من الموت وهم ينشدون أغاني (وطنية). إذ يذكر المؤرخ المشهور سترابو Strabo أن ثوار مقاطعة Cantabrians في شمال أسبانيا ظلوا ينشدون أناشيد الانتصار وهم معلقون بالمسامير على الصليب[٣].

ويذكر الكاتب الروماني Silius Italicus واقعة خاصة فيها الولاء والمحبة الشديدة إذ أصرَّ عبدٌ أسباني أن يُصلَب مع سيده[٤].

ولم يكن القانون الروماني يعتبر أن الثوار هم ثوار، بل كان الاسم اللاتيني القديم Laterenes هو عصابات أو لصوص.

وتوجد دراسة مفصلة يتعذر علينا في الوقت الحالي أن نقدمها ملخَّصةً ولكن نكتفي بالإشارة إليها نشرها R. MacMullen بعنوان أعداء النظام الروماني Enemies of the Roman Order, 1966 اقتبس فيها الكثير من النصوص اللاتينية القديمة؛ تؤكد أن كل من كان يقاوم حكم روما كان يعتبر بمثابة عبد يقاوم سادته. ونكتفي هنا بالإشارة إلى بعض الأحداث التاريخية المدوَّنة في المصادر اللاتينية واليونانية القديمة، إذ يذكر الكاتب الروماني Petronius أن جماعة من اللصوص في مدينة أفسس قد تم صلبهم:

---

(1) Philipp icae 13: 21.
(2) De Bello civili, 7:303.
(3) 3:4 18 – c 165.
(4) Punica 1.179.

"وأمر الوالي أن يربط اللصوص في الصلبان وأن يظل هؤلاء تحت حراسة مشددة حتى لا ينالوا أية مساعدة ولا يسرق أهلهم أجسادهم"(١).

والكاتب المعروف أبوليوس Apuleius في مؤلفه Metamor phoses يذكر الصلب في الفقرات التالية:

1.14,2 – 1. 15,4 – 3. 17,4 – 4. 10,4 – 6. 13,2 – 632,1 – 10. 12,3

وعنه ننقل هذه الفقرة التي يصف فيها صلب لص يوناني:

"ولم يكن هناك ما يدعو للتأخير، وحسب عادة بلاد اليونان تم إحضار النار وعجلة التعذيب وكل الأدوات الأخرى وهنا زاد حزني بل تضاعف، لأنني لن أموت بجسد سليم وهنا صاحت امرأة عجوز: قبل أن تسمروا هذا اللص في الصليب أريد أن أتشفى فيه لأنه قتل أولادي .."(٢).

وكان القانون الروماني يقضي بصلب اللص والثائر في مكان جريمته لكي يردع الخوفُ الآخرين(٣).

وكان كل حاكم مقاطعة أو والٍ يُعتبر بمثابة ممثل للقيصر أو لمجلس الشيوخ وكان هذا يعني أنه يملك إصدار حكم الصلب من أجل إقرار الأمن والسلام. وطبعًا لم يكن هناك فصلٌ بين سلطة الجيش والبوليس وساحة القضاء أي المحاكم، لأن كل هذا في النهاية كان في يد شخص واحد هو الحاكم أو الوالي. ونظرًا لشدة القانون الروماني وقسوته كان الثوار بل واللصوص يقومون بصلب القادة أو ضباط الجيش الروماني الذين يقعون في الأسر حسب شهادة سنيكا(٤).

---

(1) Satyricon in Phaedrus, Fabulae Aespi in Appendix Peroltina, 15.

(٢) المرجع السابق 3.19,1f

(٣) راجع: Collectio Legum Mosaicarum et Romanrum.

(4) Seneca the Elder, Conroversiae, 7.4,5 .Apuleius, Metamorphoses, 6.13 .Xenophon,

ولما استتب الأمر لروما وساد السلام الروماني Pax Romana في الفترة التي سبقت ميلاد ربنا يسوع المسيح يقول الكاتب الروماني والمؤرخ "سيوتنيوس Suetonius" عن حكم أوغسطس قيصر إن بحارة الإسكندرية من شدة تعلقهم بالقيصر وبسبب انعدام وجود قراصنة البحر "كانوا يعيشون به، وبه أيضًا كانوا يبحرون، وبه كانوا يتمتعون بالحرية ورغد العيش"(١).

وبعقوبة الموت صلبًا طهَّر أوغسطس كل مقاطعات إيطاليا من اللصوص حتى أن الكاتب الروماني Quintilian مدح عقوبة الصلب إلى درجة يقول فيها إن الصلبان يجب أن توضع في كل الطرق المزدحمة.

"وعندما نصلب المجرم فان الطرق المزدحمة هي أنسب مكان حتى يرى عملية الصلب أكبر عدد من الناس ويضبطهم الخوف"(٢).

الصَّلب للعبيد:

بينما كانت الشعوب الأخرى تختار الصليب كوسيلة لقتل القادة، مثلما هدد الملك داريوس، ملك فارس، الفاتح المكدوني الإسكندر الأكبر بأن يصلبه مثل لصٍّ أو زعيم لصوص(٣). إلَّا أن القانون الروماني حفظ هذه العقوبة للعبيد بشكلٍ خاص، ومن شيشرون الذي أشرنا إليه سابقًا، وأيضًا "فاليريوس مكسيموس Valerius Maximus يظهر لنا الاسم الروماني القديم Servile Supplicium عقوبة العبيد، حتى أنه أحجم عن ذكر تفاصيل صلب الجنود الرومان الذين صلبهم

---

phesiaca, 4.6,2

(1) Augustus 98.2

(2) Declamationes, 274

(3) Vita Alexandri cod. I. 1.36,5.

Scipio ويقول في أسفٍ ظاهر عن هذه الحادثة بالذات:

"لن أضيف إلى ما ذكرت شيئًا، لأن هذه الواقعة تخص "سكيبيو Scipio ولأن الدم الروماني لا يجب إهانته بعقوبة العبيد مهما كانت فداحة الجرم"[١].

ولذلك السبب عينه عندما يذكر المؤرخ الروماني تاسيتوس Tasitus موت المسيح على الصليب يقول إنه عوقب بالعقوبة التي توقع عادة على العبيد[٢].

وطالما أننا في مجال الحديث عن التاريخ الروماني، فان أقدم مرجع هو الكاتب الروماني بلوتوس Plautus الذي يُعتبر أول مَن سجَّل عادة صلب العبيد وعاش هذا الرجل في الفترة من ٢٥٠ – ١٤٨ قبل الميلاد.

إذ يقول إن أسلوب صلب العبيد معروفٌ في التاريخ الروماني، وحسب تعبيره، منذ فجر التاريخ الروماني. ويقدم نموذجًا لعبد اسمه Chrysalus قام بجريمة غش سيده ويقول هذا العبد البائس إن سيده سوف يعود وسوف يغير اسمه من Chrysalus (حامل الذهب) إلى Cruciasalus أي (حامل الصليب)[٣].

ويخصص Plautus مقطعًا كاملًا عن عقوبة الغش في الفقرات التالية حيث يذكر الصليب بالتحديد[٤].

ويذكر نفس المؤلف هذه العبارة على لسان عبد بائس يدعى Sceledrus:

Scio crucemfuturam mihi Sepulcrum; Ibi mei macores sunt siti, Pater, auos, proavos, abaous.

---

(1) Valerius Maximus 2. 17,12.

(2) Tasitus, Histories, 4. 11.3.

(3) Plautus, Becchides, 362.

(4) Asinaria, 548 .Mostellaria, 1133 .Persa, 855

"أنا أعرف أن الصليب سوف يكون قبري، لأنه (الصليب) حيث يوجد أجدادي، أبي، وجدي، وجدي الكبير، وجدي الأكبر"[١].

وبعد Plautus يأتي الكاتب الروماني Terence الذي كان عبدًا ثم عُتق، ولذلك لا يذكر الصلب بنفس الاهتمام، لأنه كعبد كان يعرف أن عقوبة العبيد قاسية. لكن الصلب يحظى باهتمام المؤرخ الروماني "ليفي Livy"، وفي عام ٢١٧ قبل الميلاد يذكر صلب ٢٥ عبدًا تآمروا على القائد الروماني في معسكر Campus Martius [٢] وبعد ذلك في عام ١٩٦ قام القائد الروماني Acilius Glabrio بإخماد ثورة للعبيد في مدينة Eturia وساعدته كتيبة كاملة Legion وتم صلب رؤساء المؤامرة[٣]. وحسب شهادة تاسيتوس Tacitus كان في روما مكانٌ خاصٌّ للصلب وهو تلٌّ مرتفع يُعرف باسم Campus Esquinus يشبه الجلجثة[٤] في أورشليم. ونظرًا لوجود أجساد المصلوبين كانت الطيور الجارحة تأكل هذه الأجساد وأطلق عليها المؤرخ الروماني Horace اسم Esquilinae Alites نسبة إلى اسم التل نفسه. وكان منظرًا مألوفًا أن تسرع الطيور الجارحة حسب شهادة Jurenal، لكي تأكل هذه الأجساد ويقول:

"كانت النسور تسرع إلى جثث الماشية والكلاب والصلبان حاملة لحم الموتى إلى أعشاشها لكي تطعم صغارها"[٥].

والمجال يضيق عن تقديم أعداد العبيد الذين صُلِبوا في أول حرب للعبيد في

---

(1) Plautus, Miles glriosus, 3723.
(2) 22: 33,2.
(3) Livy, 33:36,3.
(4) Annals 15:40.
(5) Satires, 14.77.

Sicily والتي دامت منذ عام ١٣٩-١٣٢ قبل الميلاد، والتي صُلب فيها ٤٥٠ عبدًا حسب شهادة المؤرخ اورسيوس Orosius.

وثورة العبد المشهور سبارتاكوس Spartacus أدت إلى صلب ٦٠٠٠ ستة آلاف عبد على طريق Appia بين Capua وروما. وقد قام سبارتاكوس نفسه بصلب أسير روماني لكي يحذِّر رفاقه من المصير التعس الذي ينتظرهم إذا تراجعوا عن القتال أو الثورة. وظل الصليب ينشر الخوف في قلوب الناس حتى ألغى الملك قسطنطين هذه العقوبة البشعة المعروفة باسم "العادة القديمة" في عهد نيرون Nero الذي حصل على موافقة مجلس الشيوخ الروماني Senate بإحياء "العادة القديمة" إذا قُتل أحد السادة بواسطة عبد واحد أن يُصلب كل العبيد معًا في وقت واحد حتى يخاف الكل من هذه العقوبة الجماعية ويضمن السادة سلامتهم[١].

وتطور التشريع الروماني بعد ذلك بسبب خلل الأمن، فوصل إلى حد صلب أي سيد كان عبدًا وعُتِق إذا اشترك في أي عمل سياسي أو تمرد أو ارتكب جريمة الغش أو الرشوة[٢].

ونظرًا لتراجع القانون والنظام والأمن وجد علماء اللغة اللاتينية هذا النقش القديم باللغة اللاتينية:

Crimen opes redimunt,
reus est crucis omnis egenus.

"يشتري الأغنياء حكم (المحاكم)
والفقراء يُعاقبون بالصلبان"[٣].

---

(1) Tacitus, Annals 13.32,1.
(2) Scriptores Historiae Augustae, 18.
(3) Anthologia Latina, 794,35.

ولعل كل من سمع كلمات الرسول بولس في فيلبي ٢: ٦-١١ والتي تقول:

"الذي إذ كان في صورة الله، لم يحسب مساواته لله اختلاسًا،
بل أخلى ذاته، أخذ صورة العبد ...، وأطاع حتى الموت، موت الصليب".

لم يكن لديهم أي شك في أن المسيح الذي صار في هيئة أو صورة العبد، مات موت الصليب قد مات فعلًا؛ لأن من يدرس باقي الكلمات يدرك أن غياب الصليب يجعل هذه الكلمات بلا معنى.

"لذلك رفعه الله، أعطاه اسمًا فوق كل اسم،
لكي تجثو باسم يسوع كل ركبة في السماء وعلى الأرض".

لأن المجد لا يحصل إلَّا بعد الموت صلبًا، ومَن يسجد باسم يسوع لا يسجد إلَّا لمن قَبِل صورة العبد قبل أن يعود إلى مجده. الصليب الذي سبق المجد هو رسالة الإنجيل ليس فقط لروما، ولكن للحضارة والثقافة الإنسانية كلها التي تخاف الألم وتحاول ان تخدع الناس بأن الموت ليس مشكلةً.

الفصل السادس

الصلب والصليب في المصادر اليونانية

كان الاهتمام بالمصادر اللاتينية في الفصول السابقة ضروري لأن بيلاطس البنطي الوالي الروماني هو الذي أصدر حكم الموت على ربنا يسوع المسيح. لكن لم تكن روما وحدها هي التي أخذت بهذا الأسلوب القاسي، بل نرى الصَّلبَ والصليب يمد ظلاله عبر المصادر اليونانية التي تبدأ بأب التاريخ هيرودوتس Herodotus ثم ديودور الصقلي Diodorus وأشهر الكُتَّاب اليونانيين مثل ايفريبيدس Euripides وبلوتارخ Plutarch وغيرهما، هؤلاء عرفوا الصليب والصَّلب. ويذكر أب التاريخ هيردوتس أن العرف السائد في أثينا هو صلب كل أعداء المدينة، ومن النص اليوناني لهذا المؤرخ يصلنا تعبير "سُمِّر في الخشبة" لكي يؤَكِّد استخدام المسامير والخشب لصلب المعاقَبين. وفي مسرحية سوفوكليس Antigon Sophocles يهدد، كريو Creon كل الذين يعرفون مكان مقبرة Polyneices بأن "يُعلِّقهم أحياء" والنص اليوناني يعني ليس مجرد أن يُعلَّقوا، لأن تعليق الحي لا يعني الشنق بل الصلب. لأن الأسلوب الدارج في تلك الحقبة يعني التعليق على خشبة حسب ما جاء في شذرة مسرحية للكاتب الفكاهي الكوميدي Cratinus حيث يذكر النص تعليق العبيد وتسميرهم على خشب[١].

([1]) Sophpcles, Antigon, 308 Scholion in Aristophanes, crogment 341.

وصُلِبَ بوسانيوس Pausanius قاتل الملك فيليب ملك مكدونية وجاءت الإلهة أولمبياس Olympias وهي التي أوحت بجريمة القتل ووضعت إكليلًا من الذهب على رأس القاتل بوسانيوس Pausanius [١].

وقام القائد البحري اليوناني كونون Conon حوالي عام ٣٩٧ قبل الميلاد بصلب زعيم التمرد القبرصي، كما صلب الملك ديونيسيوس الأول ملك سيراكيوز Syracuse الجنود اليونانيين المرتزقة الذين كانوا يحاربون مع جيش قرطاجنة. وقام الملك فيليب الثاني ملك مكدونية يصلب أونامارخوس Onomarchus الذي دنَّس معبد دلفي Delphi [٢].

أما الإسكندر الأكبر المعروف باسم "ذي القرنين" فقد كان أكثر قائد يوناني مارَسَ صلب الذين وقعوا في الأسر أو الذين حاربوه. فقد قام بصلب كل الذين قاوموه من المدافعين عن مدينة "صور" وقام بصلب ٢٠٠٠ من هؤلاء المدافعين على امتداد ساحل صور[٣].

ويذكر أريان Arrian أن نفس الاسكندر عندما فتح الهند صلب الأمير الهندي موزيكانوس Musicanus في بلده ومعه كل البراهمة (رجال الدين الهندوس) الذين حرَّضوا على الحرب[٤].

واستمرت سياسة الصلب بعد موت الاسكندر إذ صلب بيراديكاس Peradiccas الذي تولَّى إدارة الإمبراطورية، الملك أريار Ariarathes ملك

---

(1) Justin, Epitoma 9:7,10.

(٢) راجع بردية Conon رقم ٨٤٢ وكتابات ديودور الصقلي 14.53.4 ونفس الكتاب 16.61.2

(3) Cartius Rufus, Historia Alexandri 4:4,17.

(4) Anabasis Alexandri 6: 17,2.

كبادوكية وعذَّب كل الذين ساندوه (٣٢٢ قبل الميلاد حسب شهادة ديودور الصقلي 18.16,3).

وكان الصراع على السلطة بعد موت الإسكندر يعني صلب المعارضين، وهو صراع دموي يعرف باسم Wars of Diadochi وقد دوَّن ديودور الصقلي صلب ٣٠ من أهل مدينة سيكيون Sicyon قرب مدينة كورنثوس، كما قام ديمتريوس المعروف باسم الكنية أرخومينوس Orchomenus بصلب قائد حامية أركاديا Arcadia ومعه ٨٠ شخصًا[١].

ويستمر ديدور الصقلي في عرض وقائع صلب حتى عام ٩٧ قبل الميلاد في الحروب والصراعات والمؤامرات السياسية، ولم يتوقف الصلب بل استمر بعد ميلاد المسيح، إذ أمر الإمبراطور الروماني كلوديوس Claudius بتحديد حرية أهل جزيرة رودس Rhodes لأنهم صلبوا بعض الجنود الرومان لم يحدد Dio Cassius عددهم. وصلب الإمبراطور الروماني دومتيان Domitian الكاتب السوري هرموجينوس Hermogenes من مدينة طرسوس بسبب بعض آرائه السياسية حسب شهادة المؤرخ الروماني سويتونيوس[٢].

فلم يكن الصَّلبُ أو الصليب شيئًا غريبًا، أو بعيدًا عن أذهان الناس بل حقيقة شائعة معروفة تمتد عبر التاريخ وتمر في كافة عواصم العالم القديم وحسب الظروف القاسية. وصدقني أيها القارئ أنني لم أذكر إلَّا ما يساوي نصف الوقائع التاريخية المبعثرة في المصادر القديمة وذلك حتى لا تُصاب بالملل. ولكن نكتفي

---

(١) Diodorus Siculus, 19:7, / 20, 103, 2).

(2) Suetonius, Domitian, 10.1.

بالإشارة إلى أهمية المصادر اليونانية لأنها **أولًا** تاريخ، **ثانيًا** تمدنا بالاسم والفعل اليوناني "الصليب" و"الصلب" اللذان وردا في العهد الجديد المدوَّن باللغة اليونانية، و**ثالثًا** لأن عبارة "يسوع المصلوب" (١كورنثوس ١: ٢٣ – ٢: ٢، غلاطية ٣: ١ وإنجيل متى ٢٨: ٥) هي عبارة مألوفة سمعها الذي جال بينهم بولس من أورشليم إلى إسبانيا (رو ١٥: ١٩). هذه العبارة لا يمكن أن تكون كذبة أو أسطورة لأن من يكذب إنما يحاول أن يتستر على شيء أو يكسب شيئًا أو لأنه يطمع في شيء. ولكن ماذا كانت حصيلة الكرازة بالمسيح بالمصلوب؟ .. جيشٌ من الشهداء.

الفصل السابع

الصلب في المصادر اليهودية

يذكر الرسول بولس أن الصليب هو عثرة لليهود (غلاطية ٥: ١١)، وخلف هذا التعبير نجد نص سفر اللاويين (لا ٢١: ٢٣) "ملعون كل مَن عُلِّقَ على خشبة"، هذه اللعنة بالذات جعلت اليهود يمارسون الصلب في أضيق الحدود.

ويذكر سفر التكوين إعدام رئيس خبازين فرعون، والنص لا يذكر الصَّلب وإنما يقول: "في ثلاثة أيام يرفع فرعون رأسك عنك ويعلقك على خشبة وتأكل الطيور لحمك عنك" (تك ٤٠: ١٩). وأغلب الظن أن الرجل قُطِعَت رأسه أولًا ثم عُلِّقَت جثته في مكان عام. وكان الشنق وقطع الرأس يمارَس في مصر الفرعونية، ولذلك لم يصلنا نصٌّ عن "الصلب" بالمرة. ولعل هذا النص من سفر التكوين لا يختلف عن نصٍّ آخر في سفر العدد (٢٥: ٤) إذ يقول: "فقال الرب لموسى خذ جميع رؤوس الشعب وعلِّقهم للرب مقابل الشمس"، وهو ما يوحي لنا بالإعدام وليس بالصلب. أمَّا أول مَن صُلِبَ في العهد القديم فهو ملك عاي الذي "علَّقه" يشوع بن نون على خشبة (يشوع ٨: ١٩).

ويذكر سفر صموئيل الثاني صلب أبناء شاول، ويصف الذين ماتوا باسم "المصلوبين" (٢صموئيل ٢١: ٦، ٩، ١٣).

وإذا انتقلنا إلى فترة السبي كان هامان الفارسي هو أشهر مَن صُلِب عوضًا

عن مردخاي اليهودي حسب نص سفر استير (٥: ١٤ – ٧: ١٠).

وبسبب قلة الإشارات إلى الصَّلب في التاريخ اليهودي كما ورد في العهد القديم، اعتقدَ أغلب علماء العهد القديم أن هذا الأسلوب نُقِلَ عن الشعوب المجاورة لإسرائيل القديم.

وكان الملك اليهودي الكسندر جانايوس Alexander Jannaeus هو أول مَن صَلَبَ ٨٠٠ رجل من شيعة الفريسيين حسب رواية المؤرخ اليهودي يوسيفوس[١].

وتذكر المشنا Mishnah أن سمعان بن شتا Simeon b. Shetah قام بصلب ٨٠ ساحرًا في مدينة عسقلان بفلسطين[٢].

أمَّا أكثر واقعة للصلب، فهي صلب ٢٠٠٠ رجل من الذين كانوا يدافعون عن أورشليم وقام القائد الروماني فاروس Varus بصلب هؤلاء حسب رواية المؤرخ اليهودي يوسيفوس[٣]. وقد سبق وأشرنا إليها. وقد عثر علماء الآثار على جثث بعض المصلوبين في مغارات قريبة من البحر الميت وبشكل خاص مغارة جبعة مفتار Giveat ha-Mivtar.

وقام علماء التشريح والطب بدراسة العظام ووجدوا آثار المسامير والصلب ظاهرة بشكل واضح وهي حتمًا من العصر الروماني، وربما تعود إلى عام ٧٠ وهي في الحقيقة العظام الوحيدة الباقية من العالم القديم كله التي تحمل آثار الصلب. ونُشرت دراسات مفصلة عن هذا الاكتشاف الأثري في المجلات العلمية والطبية

---

(1) Jusephus De Bello Judaico, 1:97 f Antiquitates 13:380-3.

(2) Mishnah, Sanhedrin, 6:5.

(3) Jusephus, De Bello Judiaco, 5: 449.

ولعل أهمها دراسة كل من:

H. Haas, Anthropological Observations on the Skeletal Remains from Giveatar ha Mvtar, 1970, Vol. 20 p38-p59.

ثم دراسة أخرى تاريخية:

Y. Yadin “Epigrahpy and Crucifixion” 1973. Vol 23, p18-p22.

وذلك في المجلة العلمية Israel Exploration Journal.

وهكذا جادت الحفريات بالأدلة المادية التي تصلنا هذه المرة من فلسطين حيث صُلِبَ يسوع.

الفصل الثامن

ماذا تعني هذه الأدلة التاريخية؟

ينشر الصليب ظلاله من الهند مرورًا ببلاد فارس ثم يمتد الظل عبر حوض البحر المتوسط ليشمل أغلب بلادها.

تاريخٌ حافلٌ بالدم والألم حيث عُلِّق الآلاف من البشر من مختلف الأعمار واللغات والثقافات من الأحرار والثوار والقتلة والمفكرين والعبيد .. الخ، كل هؤلاء يؤكدون أن الصلب والصليب هو حقيقة تاريخية حدثت ليس فقط في بلاد اليونان والرومان، بل في فلسطين وخارج أسوار أورشليم .. فالصليب يمتد من أورشليم إلى روما، لكن مع كثرة هذه الصلبان يبرز صليبٌ واحدٌ استطاع أن يدخل فكر وقلب عدد كبير من الناس بعضهم فضَّل أن يموت مثل يسوع المصلوب واعتبر أن هذا الموت المؤلم هو أكبر شرف .. لكن ماذا يعني كل هذا الحشد من معلومات وحقائق تاريخية وُضِعَت معًا في هذه الفصول؟

أولًا: إن موت يسوع المسيح على الصليب هو حدثٌ لا يختلف عن موت الآلاف الذين صُلِبوا. وبالتالي نحن لسنا إزاء حدث فريد لم يتكرر في كتب التاريخ بحيث يجعل الشك في صحته جائزًا، لأن ما هو فريد ولا يوجد مثله يتعذَّر علينا أحيانًا أن ندرسه أو نقارنه ويظل لذلك لغزًا محيرًا للعقول.

فالمعجزات لا تتكرر ولا تحدث دائمًا ولا تتشابه وبالتالي تصبح من المسائل

المحيِّرة للعقل ويتعذَّر أحيانًا فحصها حتى بالأساليب العلمية.

ثانيًا: إن ما تذكره الأناجيل الأربعة والتاريخ المسيحي بل والعبادة المسيحية، أي الصلوات المسيحية المدوَّنة منذ عصرٍ مبكر يؤكد الاعتقاد الواضح والصريح بصلب يسوع المسيح ربنا. ولاحِظ أيها القارئ أن الصليب يدخل في طقوس الانضمام إلى الكنيسة لأن المعمودية مؤسَّسة على موت المسيح والصلب معه (رو ٦: ١-٩).

بل حتى وليمة العشاء الرباني هي ذكرى لهذا الموت الذي يتناول الجسد والدم وكلاهما علامة واضحة على موت المسيح وسفك الدم على الصليب. ثم يجيء رشم الصليب في الصلاة مؤكِّدًا ليس فقط موت المسيح بل معنى وساطته. وماذا عن جيش الشهداء، وعن الذين تمثَّلوا بيسوع وصفحوا عن الذين قتلوهم وصلوا لأجلهم، بل أعطى بعضهم المال مكافأةً مثل الشهيد كبريانوس الأسقف الذي قدَّم المال للجلاد، أو مثل الشهيد أغناطيوس الأنطاكي الذي رفض رشوة الجنود لإطلاق سراحه؟

جيشٌ من الأطفال والنساء والرجال يسير نحو الموت بخطى ثابتة .. كيف حدث كل هذا إذا كان الصليبُ خرافةً؟

هل يمكن أن تحل الأسطورة أو الخرافة محل الحدث التاريخي؟

يتعذر على من يقرأ التاريخ القديم السابق لظهور المسيحية أن ينكر واقعة الصلب، لأن الصلبان ملأت العالم القديم، ونشرت الرعب والخوف في قلوب الناس إلَّا صليب يسوع الذي ملأ الذين آمنوا به بالشجاعة ومواجهة الموت والحياة الفاضلة، لا سيما الصفح عن المسيء وغفران كافة الخطايا مثل يسوع المسيح الذي

تشبَّه به أول شهداء المسيحية اسطفانوس "فكانوا يرجمون اسطفانوس .. ثم جثا على ركبتيه وصرخ بصوت عظيم يا رب لا تُقِم لهم هذه الخطية" (أع ٧: ٦٠). وهكذا تغلغل الصليب في كل شيء، فكيف يمكن أن تحل أسطورة وخرافة أو قصة اخترعها البعض محل حدث تاريخي؟ إن الباحث يجد أنه أمام احتمالين:

الاحتمال الأول: إن الصلب حدث تاريخي، وأن تقديم أي تفسير آخر لموت المسيح هو محاولة لطرد التاريخ وإحلال الأسطورة محله. والصلب معروف وشائع، وتعذيب المصلوب بالجلد ظاهر في وثائق كثيرة سابقة على ظهور المسيحية، وبالتالي ما تذكره مصادر التاريخ لا يتعارض مع العهد الجديد ولا الإيمان المسيحي بالمرة. وهذا يعني أن المألوف هو موت المصلوب بعد عذاب ومعاناة، وما جاء في الأساطير عن اختطاف أو هرب أو اختفاء مصلوب هو خرافات وقصص تتعارض مع الواقع، لأن مَن يُعلَّق على خشبة ويُدَق في جسده مسامير هو أمرٌ حقيقي لا يمكن إنكاره، وهو الحدث العادي الذي لا يوجد فيه أي مجال للخرافات أو الأساطير. فإذا كان الموت حقيقة عادية تاريخية وكان الصلب شائعًا ومعروفًا فإن محاولة الإنكار هي محاولة لإحلال الأسطورة محل التاريخ.

الاحتمال الثاني: أن الصلب نفسه هو الأسطورة والخرافة وأن الأمر مجرد قصة واختراع الخيال البشري. ويبقى على صاحب هذا الرأي أن يقول لنا إن المسيح لم يُصلَب، حسنًا، وماذا حدث له؟ وكيف مات؟ .. والجواب إذا تعدى ما هو عادي وشائع ومألوف ومعروف عن الموت تحول إلى جانب الخرافة أو الأسطورة، كأن يقول قائل بأن يسوع أسقط شكله على يهوذا تلميذه الخائن .. وهو أمرٌ لا وجود له ولا هو معروف في التاريخ لأنه لا يوجد حدث يماثله أو قريب الشبه منه

.. هنا يهرب صاحب هذا الرأي من التاريخ إلى الأسطورة ومن الحقيقة إلى الخيال ..

لم نسمع من كتب التاريخ عن إنسان أسقط شكله على إنسانٍ آخر لكي يموت عوضًا عنه .. وهكذا يأخذ اليهود والرومان يهوذا ويصلبوه وهم يعتقدون أنه يسوع وكأن يهوذا كان في شكل المسيح ..

ولو عرضنا هذا الرأي على المؤرخين الوثنيين لضحكوا في سخريةٍ لأن المحاكمة حسب القانون الروماني كانت تعني أن يتأكد القاضي من شخصية المتهم، وكان وجود الشهود وشهادتهم في حضور المتهم من القواعد الأساسية في القانون الروماني .. وماذا يمكن أن نقول عن إنسان يعرف أنه ليس يسوع وأن الموت ينتظره، الموت الرهيب المؤلم .. ويسكت؟

ولعل أفضل ما في هذه النكتة السيئة ليست جهل القاضي وسكوت وصمت يهوذا .. بل صمت وسكوت باقي التلاميذ وهو صمتُ الجُبن والخوف والغدر .. ويصبح يسوع نفسه هو معلم الغدر والخوف ويصبح الصَّليبُ دعوةً للغدر والمكر والخيانة والانتقام .. فكيف تحول إلى علامةٍ للغفران والبذل والشهادة وقول الحق والتضحية بالذات ..

وعندما تحل الخرافة محل التاريخ تسقط الشهامة والشجاعة وتختفي المروءة والبذل وتنعدم الرجولة ويتحول الحدث التاريخي بكل ما يحمله من مبادئ روحية سامية إلى أسطورة قذرة بشعة تبعث في النفس روح التآمر والتخفي وقتل المعارضين والهرب من الموت والاختفاء خلف جسد ودم الأبرياء وتتحول المسيحية وشهداء المسيح إلى قصة للتآمر والكذب والخداع وكأننا هنا نعيش كابوسًا ثقيلًا تحاول فيه

الأسطورة والخرافة أن تزرع في النفس الكذب والجُّبن والخداع لأن الحدث التاريخي يزرع الحق والبذل والمحبة والمغفرة.

هذا الشك المذهبي:

يحاول هذا الشك وهو أخطر أنواع الشكوك أن يجعل الخرافة رائدة، لأن أصحاب المذاهب لا يمكن اقناعهم بأن مذهبهم سليم وصادق وحَسِن في بعض الأمور وضيق جدًا وعاجز بالمرة وفاشل تمامًا في أمور أخرى. وحاول أن تفهم أيها القارئ الشك المذهبي الذي وصلنا من الهرطقة القديمة المعروفة باسم "الغنوسية" أو "العرفانية" والتي تضع "المعرفة" Gnosis قبل أي شيء آخر.

لكن الاسم نفسه لم يُعفِ أصحاب هذه المدرسة من أخطاء فادحة مثل رفض الزواج الذي أدَّى في نهاية الأمر إلى القضاء على المذهب نفسه .. وكيف تعجز المعرفة عن إنقاذ أتباعها من الجهل بقيمة وضرورة الزواج من أجل الاستمرار البيولوجي للجماعة؟

وعجزت معرفة الغنوسيين عن مساعدتهم على تقدير الجسد وتحديد الخير والشر بشكلٍ صحيح ولذلك حلَّت الأساطير القديمة محل التأمل الفلسفي، لأن اعتبار الجسد مصدرًا للشر لا يمكن اثباته فلسفيًا ويمكن الاقتناع به بواسطة القصص والأساطير.

وهكذا صُلِب خيال يسوع المسيح، أمَّا المسيح الحقيقي أي الكائن الروحاني غير الإنساني فهو لم يُصلب. وفي مدرسة الأساطير لا يجوز السؤال بل يعتبر عدم تصديق الأسطورة نوعًا من الكفر. ومع أن أصحاب الغنوسية ومؤسِّسو هذا المذهب قد شاهدوا الصلبان أو سمعوا عنها إلَّا أنهم رفضوا صلب المسيح لأن المسيح

لم يكن بشرًا له جسد بشري مثل أجساد كل البشر. وهنا يصبح الشك المذهبي هو شكٌ بلا دليل، بلا معرفة، نابع من اعتقاد شخصي لا يؤيده التاريخ بل يؤيده المذهب.

وعندما تتعارض الحقائق التاريخية مع المذهب، فإن قبول حقائق التاريخ يعني أن يرفض المذهبيون مذهبهم .. وهذا يكلِّف.

وهروب المسيح من الصليب هو أسطورة لها ما يماثلها في الوثائق التي ذكرناها .. أما صلب المسيح فهو حقيقة لأن الإنسان لا يملك أن يهرب من يد صالبيه بالحيلة أو الخدعة ولم يكن يسوع صاحب خدع ولا معلمًا للحيل.

ويبقى أمام القارئ طريقين لا ثالث لهما:

الطريق الأول: محفورٌ في قلب التاريخ البشري، حفرته صلباناٌ كثيرة سبقت صلب المسيح وجاءت بعده، والكل يحمل معاناة وألم وموت ودموع وعذاب وهي الصورة الحقيقية التي يعرفها الإنسان عن الحياة في أي زمان ومكان. كل هذا يتدفق مثل حياة النهر في اتجاهٍ واحدٍ وهو الواقع الإنساني، وطريق صليب يسوع هو طريق حقيقي هو الألم والدم والموت، وهو أيضًا المحبة والمغفرة والتسامح. وحفر الصليب عادات إنسانية وترك بصماته على المعمودية وعلى الميرون وعلى الإفخارستيا والخدمة والرهبنة والصلاة، بل والفن والرسم والنظرة المسيحية الشاملة للحياة الإنسانية. كل هذا لا يمكن فهمه أو دراسته إذا أنكر إنسانٌ الصَّلبَ أو حاول أن يغطيه بخدعة أو حيلة أو مكر قام بها المسيح ليهرب من الألم خوفًا أو شفقةً على نفسه أو .. الخ.

الطريق الثاني: هو طريق وهمي حاولت الأسطورة والقصة أن تُدخِله في

حياة الإنسان، حاولت الأسطورة أن تنكر الألم أو تنفي قدرة المسيح على مواجهة عذاب الموت صلبًا، وجعلت الأسطورة كل شيء حقيقي مثل الموت يتحول إلى وهم، وأنكرت الأسطورة شجاعة المسيح التي تميَّز بها أصغر أنبياء العهد القديم ووصلت إلى حد السفاهة بأن صورت المسيح وقد ألقى شبهه على يهوذا الأسخريوطي الذي صُلب عوضًا عن يسوع، ولكي تصبح الحيلة هي طريق النجاح ويصبح يسوع نفسه خارج حياة الإنسان بما فيها من ألم وموت وعذاب، وكأنه لا ينتمي إلى الإنسانية بالمرة. فالأسطورة تحاول جاهدةً أن تخلع عن يسوع إنسانيته ولم تخلق هذه الأسطورة شهداء ولا أوحت بصلوات، ولا ساعدت على النسك ولا شجعت على المغفرة أو التسامح أو محبة الأعداء.

ولم تخلق أيقونةً ولا عادات اجتماعية ولا صاغت قيمةً من القيم الإنسانية السامية لأنها تتصدى للحق وتحاول أن تنكر التاريخ دون أن تعطي شيئًا إيجابيًا ودون أن تصبح مصدرَ إلهامٍ بالتسامي فوق البغضة، وكأنها في حقيقة الأمر انتهت بنفي الحقيقة وتركت الإنسان عاريًا بلا قدرة على السير فوق عذاب وآلام الحياة، لأن عظيمًا مثل يسوع جاء إلى هذه اللحظة الحاسمة وهرب أو اختفى أو قدَّم للناس بديلًا عنه أو .... وكأن الأسطورة تقول لنا إن العذاب غير حقيقي والألم لا وجود له، وقبل هذا وذاك الموت هو وهمٌ وخيال.

أما الطريق الأول فهو الذي نجد فيه الصديق والرفيق الذي يطالبنا بأن نحمل الصليب ونسير معه كل الطريق .. نحمل صليبنا وليس صليبه لكي نجد المجد بعد الألم والقيامة من الموت. أما الطريق الثاني فهو سرابٌ وخداع وحيلة وكذب.

المؤرخون والمراجع التاريخية الرئيسية

Dio Cassius

وُلِد عام ١٥٠ ميلادية ومات حوالي ٢٣٥. كتب تاريخ روما باليونانية وسجَّل السنوات الأخيرة للجمهورية وبداية حكم الأباطرة.

Dionysius of Halicornassas

وُلِد عام ٢٠ قبل الميلاد. كتب باليونانية تاريخ روما في ٢٠ كتابًا وصلنا منها عشرة كتب فقط.

Plutarch

وُلِد عام ٤٦ ميلادية ومات حوالي ١١٩. كتب ٢٢٧ كتابًا. كتب تاريخ الشخصيات العامة ثم كتابه عن الأخلاق أو Moralia وهي مقالات يدرس فيها المشاكل الأخلاقية.

Plautus

وُلِد عام ٢٤٥ قبل الميلاد، كتب مسرحيات درامية قلَّد فيها المسرحيات اليونانية.

Lucian

الاسم باليونانية لوقيانوس (١٢٠-١٨٠ ميلادية) حوار مع الآلهة، حوار مع الموتى. له كتاب ممتاز عنوانه "كيف تكتب التاريخ" حيث يؤكد ضرورة الحياد التام.

Titus Livius أو Livy

وُلِد حوالي (٥٩ قبل الميلاد) ويعتبر أحد أعمدة التاريخ الروماني، كتب تاريخ روما منذ بداية تأسيس المدينة حتى موقعة أكتيوم البحرية، وينتهي كتابه بأحداث عام ٩ قبل الميلاد.

Dio Chrysostom

وُلِد عام ٤ ميلادية ونُفيَ إلى منطقة البحر الأسود عام ٨٠ لأسباب سياسية وعاد إلى الحياة العامة في روما بعد وفاة الامبراطور دومتيان.

Diodurus Siculus

عاش في القرن الأول قبل الميلاد، مؤرخ يوناني فذ. عاصر يوليوس قيصر وأوغسطس. زار مصر حوالي عام ٦٠ قبل الميلاد. كتب تاريخ العالم في ٤٠ كتابًا وقسَّم كتابه إلى ثلاثة أجزاء. استعان بكُتب المؤرخين اليونان القدامى أمثال أفوروس Ephorus الذي عاش في الفترة ما بين ٣٤٠-٤٨٠ قبل الميلاد.

Quintilion :

الاسم بالكامل Marcus Fabius

وُلِد عام ٣٥ ميلادية في اسبانيا. يعتبر أول من كتب كتابًا عن التعليم في العالم القديم Oratoria Institutio في ١٢ كتابًا، ثم كتاب آخر Declamations Majores، ثم Declamations Minores.